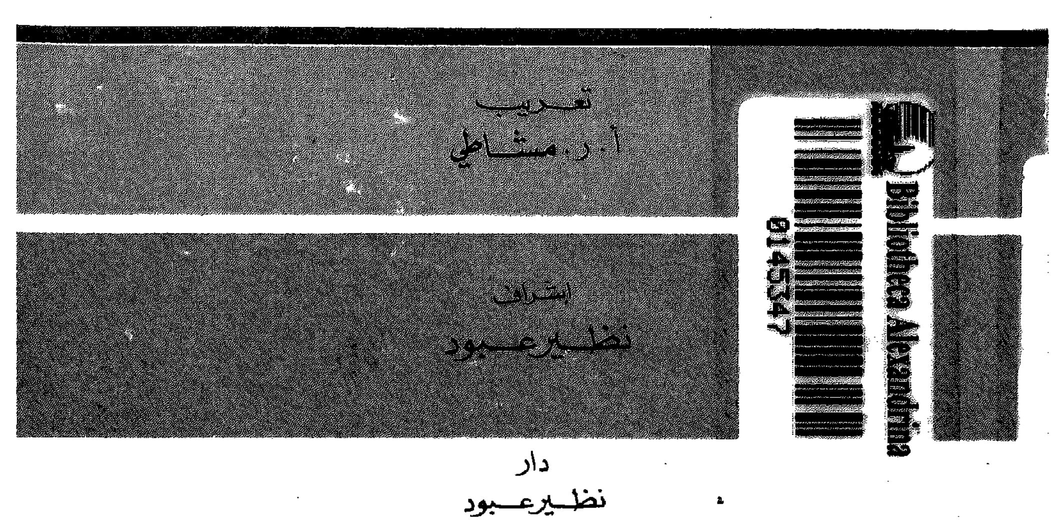
وليم شكسبير



ريتشرد الثاني



تعريب
أ. ر. مشاطي

إشراف
نظير عبود

دار
نظير عبود



ريتشارد الثاني



وليم شكسبير

ريتشرد الثاني

تعريب
أ . ر . مشاطي

إشراف
نظير عبود

دار
نظير عبود

طبعة ١٩٩٠م

ص.ب : ٨٠٨٦/١١ تلفون : ٩٣٦٧٧٢ـ ٩٢٤٧١٤

أشخاص المسرحية

الملك رِتْشَرْد الثاني.

إدموند دي لانكْلي دوق يورك جون دي غان دوق لنْكاسْتر	}	عمّا الملك.

هنري الملقّب بـ بولينْبْروك، دوق هيرفود، إبن جون دي غان،
فيما بعد هنري الرابع،

دوق أوميرل : ابن دوق يورك.

موبْري : دوق نورْفولْك.

دوق سوراي.

كونْت سالْزْبري.

كونْت برْكْلي.

بوشي باكوت كرين	}	رجال الملك رِتْشَرْد.

كونْت نورْثمْبرْلنْد.

هنري برْسي : إبنه.

لورد روس.
لورد ويلوبي.
لورد فيتْزْواتر.
اسقف كارليل.
كاهن وستْمِنْستر.
لورد مارشال.
سرْ بيرس إيكْسْتون.
سرْ إسْطفان إسْكْروب.
قائد مقاطعة وايْلس.
الملكة
دوقة كلوسسْتر.
دوقة يورك.
مرافقات.

لوردات وضبّاط وجنود وبستانيّان
وسجّان ورسول وغلام وخدم.
تجري الأحداث تارةً في انكلترا وطوراً في مقاطعة وايْلس.

الفصل الأول
المشهد الأول

في قصر الملك بلندن

(يدخل الملك رتْشَرْد وحاشيته وجون دي غان ونبلاء آخرون)

الملك رتشرد : يا جون دي غان، سيّد مقاطعة لنْكاسْتر التي عزّزها الزمن، هل جئت، حسب نصّ قسمك، الى هنا بابنك الشجاع هنري هيرفورد لتساند هذا الإتهام العاصف الذي لم تُمكّننا الظروف من سماعه حتى الآن، وهو موجّه الى دوق نورفولك توماس موبْري.

جون دي غان: أجل، يا مليكي المعظم.

الملك رتشرد : قل لي ايضاً، هل جسَسْت نبضه ؟ هل يتّهم الدوق بسبب عداء قديم أو بحجّة إخلال خطير بالواجب يستند الى برهان قاطع على الخيانة.

جون دي غان: على ما تبيّن لي، ان هذا الاتهام ينطوي على خطر

يهدّد به الدوق جلالتك، وليس بسبب أيّة عداوة رسّخها الزمن.

الملك رتشرد (لرجاله): أحضروا الى هنا الخصمين ليتقابلا وجهاً لوجه، ويتناقشا أمامي. (يخرج بعض الرجال). كلاهما متشامخان يرتسم الغضب في عينيهما عنيفاً كموج البحر ولهيب النار.

(يدخل الرجال ثانيةً برفقة بولينبروك ونورفولك)

بولينبروك : أتمنّى لمولاي الملك المحبوب عمراً طويلاً وأياماً سعيدة.

نورفولك : أرجو أن تزيد السماء هناءك كل يوم، وان تضاعف الارض ازدهار عرشك الخالد.

الملك رتشرد : اشكركما معاً. وأنا واثق بأن أحدكما متملّق بارع، إذْ إن ما أتى بكما إليّ هو إتّهام كل منكما رفيقه بالخيانة العظمى. فيا إبن عمّي هنري هيرفورد، ما هي شكواك من توماس موبري دوق نورفولك ؟

بولينبروك : أوّلاً، أرجو أن تشهد السماء على صدق أقوالي بصفتي أحد رعاياك. وباتكالي على عطفك الشخصي البعيد عن كل تحيّز وتحامُل، ألْجأ الى عدالتك الملكية. والآن إليك يا توماس موبري أوجّه كلامي، وأنا على بيّنة مما اصرّح به : ان ما أودّ أن أعلنه، أصرّ بكل قواي على تأكيد حقيقته في هذه الدنيا،

على أن تكون نفسي مسؤولة عن صوابه في الآخرة. أنت خائن وجاحد. صحيح أنك رفيع النسب، لكنك تعيش حياة غارقة في الفساد. اذ بقدر ما تكون السماء صافية غالباً ما تغشاها الغيوم الدكناء. ومرة أخرى، لإثبات وصمة عارك، أؤكد ارتباطك بالخيانة الدنيئة التي أريد، اذا سمح مليكي، ان لا أخرج من هنا قبل أن أغمد خنجري في صدرك. أوّلاً لدعم ما ينطق به لساني، ثم لغسل ما تورطت انت فيه من جرم فظيع.

نورفولك : أمّا انا، فأرجو أن لا يقلّل سلوكي من حماس غيرتي. لأن أهوال حرب النساء، ومرارة لسانين متنافرين لا تقوى على البتّ في الخلاف الناشب بيننا نحن الاثنين. هكذا يحتاج الدم الذي يغلي في عروقي الى ما يبرّد لظاه. غير أني لا يسعني أن أتبجّح بأن الصبر الجميل يحملني على التخاذل وعدم البوح بأية فضيحة. لا بد لي من التصريح بأني أحفظ لجلالتك كل احترام يفرض عليّ بأن أشدّ العنان وألْجم حرية كلامي. وإلّا لن يردعني رادع عن الصراخ في وجهه عالياً أنه خائن منحطّ. لندع جانباً إنتماءه الى الأسرة المالكة، وانه ابن عمك، يا مليكي، كي أتحدّاه وأجابهه وأدعوه نمّاماً منافقاً وجباناً خسيساً. انا

مستعد ايضاً لان اترك له مجالاً كافياً لمواجهتي، حتى إن اضطررت الى تسلّق جبال الألب الجليدية أو أي ميدان آخر غير مأهول لم تجسر قدم إنسان إنكليزي أن تطأه قبلا. بانتظار فرصة ثانية، اكتفي بهذا القول في سبيل دعم صدق كلامي، لأني واثق تماماً بأن جميع ادّعاءاته كاذبة لا تستند الى اساس من الصحة.

بولينبروك : تبًّا لك من جبان رعديد، اني أتحدّاك متنازلاً عن القرابة التي تربطني بجلالة الملك. وأدَع جانباً اصالة نسبي الذي يدفعك الخوف لا الاحترام الى الإعتراض عليه. فاذا كانت الرهبة هي الداعي الى التنصّل من تحقير نسبي، ما عليك إلا أن تتدنّى الى مستوى أسفل منه. اذ إني بافتخاري بمراسم هذه الفروسية أودّ أن أقارع سيفك وأحاسبك على كل ما تلفّظت به من شتى الشتائم التي امكنك ان تستنبطها وتصبّها على سمعتي الطيّبة.

نورفولك : انا اقبل التحدّي. وأقسم بالسيف الذي ثبّت فروسيّتي حين لامس كتفي، اني على اتمّ الاستعداد لمجابهتك بكل الوسائل المسموح بها وجميع ألوان الفروسية المشرّفة. وعندما امتطي جوادي أتمنّى ان أترجّل عنه حيًّا اذا كنت حقاً خائناً أو مقاتلا غير عادل.

الملك رتشرد : بماذا تتّهم موبري، يا ابن عمي ؟ لا بد من أن يكون

الأمر خطيراً يدعوني الى التفكير بأنه أساء التصرّف.

بولينبروك : إستمع إليّ. ان ما صرّحت به سأغامر بحياتي لاثباته. وأكرّر قولي ان موبري استقبل ثمانية آلاف نبيل راضين بما يقبضه جنود جلالتك، وتمسّك بهم للقيام بأعمال إجرامية كما يفعل الخائن البغيض والآثم الشرير. وأضيف أنني مستعد للمقارعة هنا أو في أي مكان آخر بعيد لم يقع عليه نظر أي انكليزي. أكرّر قولي ان جميع الخيانات التي دُبّرت خلال الاعوام الثمانية عشر الماضية خطّطها كلّها في هذا البلد ونسج حبائلها الخبيث موبري وعمل على تنفيذها. وأجزم ايضاً، وانا مستعد كذلك ان اثبت حسن نيّتي خلافاً لمآربه الفاسدة، بأنه هو الذي تآمر لقتل دوق كلوسستر الذي حرّض عليه أخصامه السذّج. ولأنه خائن جبان هدر دمه الزكي، هذا الدم العزيز الذي يصرخ نظير الضحيّة هابيل من أعماق الكهوف الصمّاء طالباً مني الاقتصاص العادل للجريمة البشعة ولصون كرامة نسبه المجيد الذي سينتقم له ساعدي هذا أو أخسر حياتي.

الملك رتشرد : إلى أي حدّ بلغ تصميمه على التحرك ؟ ما قولك يا توماس نورفولك ؟

نورفولك : هل يأذن لي مولاي الملك ان أحوّل وجهي وأهمس

في أذنه كي لا يسمع في هذه اللحظة سؤالي الموجّه الى صاحب هذا الدم الملكي عن مدى الاهانة التي يلحقها بخالق الكون وبالبشر هذا الخبيث حين يكذب ويفتري.

الملك رتشرد : يا موبري، انتبه الى الحياد الذي ألْتزم به والبارز في عينيّ، وكذلك في اذنيّ، ولو كان المعني ابني ووريث مملكتي، وهو فعلاً ابن شقيق أبي. فإني أقسم بجلال صولجاني ان هذه القرابة المتينة التي يسري دمها المقدس في عروقي لن تمنحه أي امتياز أو انحياز ولن تليّن صلابة استقامتي وعدالتي. هو أحد رعاياي نظيرك تماماً، يا موبري، فيمكنك ان تتكلّم بحرية وبدون وجل.

نورفولك : الخيانة، يا بولينبروك، معشعشة في أعماق قلبك، ولذلك لا يسعك إلا أن تكذب وتنكر. فان ثلاثة أرباع ما قبضته مني لأجل قضية مدينة كاليه قد وزعته بالتساوي على جنود جلالتك وقد سمحت لي بأن أحتفظ بالربع الباقي لتسديد قسم من المصاريف الباهظة التي دفعتها اثناء سفري الأخير الى فرنسا حين ذهبت لإعادة الملكة الى هنا. فتلقَّ اذاً هذا التكذيب الصريح. أمّا كلوسستر فأنا لم أقتله، ولكني لسوء طالعي نسيت قسمي وواجبي في هذه

المناسبة. غير اني لا انكر، يا سيدي اللورد النبيل لنكاستر المحترم، والد عدوّي اللدود، اني نصبت لك ذات يوم كميناً للقضاء على حياتك. وهذا ما يعذّب ضميري ويدفعني الى طلب غفرانك. لكني مؤخراً قبل أن أتناول القربان المقدس إعترفت بذنبي ورجوت منك العفو الذي اعتقد أنك لن تبخل به عليّ. هذه هي خطيئتي. أمّا باقي التهم الموجّهة إليّ فصادرة عن ماكر غادر ليس أحطّ منه بين سائر الخونة. وهكذا تراني أُصرّ على التأكيد بأني بريء من كل ما ينسبه اليّ. وأُلصق بإلحاح تهمة الخيانة بهذا العدو اللئيم الذي يتستّر وراء نسبه الرفيع ليخفي ما انغمس فيه من المعاصي. لذا ألْتمس من جلالتك ان تعيّن لنا موعد تصفية الحساب بيني وبينه نهائياً بحضورك.

الملك رتشرد : أيها الوجيه الذي يلهب الغضب حماسه، دع قياد مصيرك بين يديّ. واليك ما أصفه لك من علاج شافٍ وإن لم أكن طبيباً. ان العداء المستحكم بينكما يعمّق الجراح. فما عليك إلّا أن تنسى وتسامح، وأن تتّفقا معاً على تنقية الاجواء بينكما، ما دام اطباؤنا ينصحون بعدم اللجوء الى نزف الدماء. ارجوك، يا عمّاه الطيب القلب، ان تنهي هذا الشجار

من حيث بدأ. وعليّ ان أهدّئ روع دوق نورفولك، على أن تسكّن انت خواطر ابنك.

جون دي غان: دور المسالم يناسب عمري. فعليك، يا ولدي، ان تغضّ الطرف عمّا أثاره دوق نورفولك من مشاكل.

الملك رتشرد : وأنت، يا نورفولك، تخلَّ عما يجيش في صدرك من هواجس.

جون دي غان: مهلاً، يا هاري، مهلاً. عندما يُفرض الخضوع من مقام عالٍ، لا حاجة لتكرار الطلب مرتين.

الملك رتشرد : يا نورفولك، عليك ان تتخلّى عن حماسك حسب أمري الصريح الواضح بدون إمهال.

نورفولك : إني أرتمي عند قدميك، أيها الملك المرهوب، مكرساً حياتي لخدمتك. لكن بدون ان تنالني أية وصمة عار. لأن حياتي رهن واجبي. أمّا سمعتي التي ستبقى بعد مماتي ويخلّدها ذكر اسمي على بلاط ضريحي، فلن أرضى مطلقاً بأن تشوبها أية غيمة سوداء، وأنا مبعد ومتهم وملعون ومسحوق القلب، وقد سوّدت النميمة صفحة وجودي. وليس أمامي من بلسم يشفي جراحي سوى إراقة الدم القاتم الذي اطلق صاحبه هذه الشائعات المغرضة للنيل مني.

الملك رتشرد : لا بد لهذا الغضب من أن يخمد. فضع إتكالك عليّ وكُفّ عن هذا النزاع، لأن للأُسُود الرصينة قدرة على ترويض النمور الثائرة.

نورفولك : اجل، ولكن عليك، يا صاحب الجلالة، ان لا تزيل ترقيط النمور. فإن محوت العار عني، لن أتردد لحظة في نسيان هذه المشاغبات. مولاي الكريم، لا تنسَ أن أعزّ صفة في الدنيا هي السمعة الطيبة التي لا يكسوها اي غبار. فان نزعتها عن الرجال غرقوا في أوحال قذرة ولم ترتفع قيمتهم اكثر من الفخار المطليّ الذي يظلّ فخاراً. حقاً ان القلب المفعم بالشجاعة والولاء هو جوهرة نادرة مخبّأة في صندوق مغلق مزوّد بعشرة اقفال موصدة. فشرفي هو حياتي، وكلاهما يشكّلان وحدة لا تتجزّأ. فإن أنا فقدت شرفي خسرت حياتي لا محالة. اذاً يا مولاي الملك، دعني ادافع عن شرفي الذي اعيش للمحافظة عليه، وأموت في سبيل ابقائه ناصعاً لامعاً.

الملك رتشرد (لبولينبروك) : اسألك، يا ابن العم، ان تطرح عنك هذا التشبّث وأن تبدأ مرحلة مسالمة.

بولينبروك : وقاني الله مثل هذا الاستسلام البغيض. هل يرضيك أن أبدو كصرح منهار أمام شموخ والدي ؟ هل تريد أن أتنازل عن حقوقي لهذا المتسوّل الدنيء الذي ليس لديه ذرّة من الكرامة والحياء. قبل أن أجرح شهامتي بمثل هذا التنازل المتخاذل واستكين لتمزيق انياب هذا الصعلوك الخسيس، وهذه إهانة لن أتغاضى عنها مطلقاً، سأعرف كيف أنتصب في وجه هذا الحقير

الدموي موبري وأصون كرامتي من الازدراء الذي يواجهني به.

(يخرج جون دي غان).

الملك رتشرد : لم أُولد لأصلّي فقط، بل لأستلم دفة القيادة. وبما أني لا أرى من سبيل لمصالحتكما، ما على كلّ منكما إلّا الاستعداد للدفاع عن وجهة نظره وحقوقه، وإن تعرّضت حياتكما للخطر، وذلك يوم عيد سان لمبار في مدينة كوفنْتري حيث تحتكمان الى السيف والرمح لتصفية حساب خلافكما الحافل بالحقد والكراهية. لأني حاولت، بدون جدوى، ان اغلّب عليكما روح العدل والمسامحة. وستكون الغلبة لمن يفوز اخيراً. فيا أيها اللورد مارشال مُرْ رجالك بأن يُعِدّوا العِدّة لحسم هذا النزاع المسلح.

(يخرجون).

المشهد الثاني

في نزل سافوَا القديم بلندن

(يدخل جون دي غان ودوقة كلوسسْتر)

جون دي غان: يا للأسف، دم أسرة كلوسستر الذي يسري في عروقي يحرّضني اكثر من صياحكم على التصدي

للجزّارين الذين يستهدفون النيل منّي والقضاء على
حياتي. لكن، بما ان العقاب هو من نصيب من
ارتكب عمداً هذا الجرم الذي ارى نفسي غير قادر
على الإقتصاص منه، لا استطيع إلا ان اسلّم امري
الى ربّ السماء الذي عندما يرى الوقت مناسباً يمطر
على الاشرار نيران نقمته جزاء ما جنت أيديهم.

الدوقة : أَوَليس الإخاء بالنسبة اليك أقوى دافع في هذا
الاتجاه ؟ أَوَليس للحب من أثر بين حنايا ضلوعك ؟
ان اولاد ادوارد السبعة، وأنت أحدهم، هم كسبعة
أوعية مقدسة بل كسبعة أغصان نضرة تزيّن شجرة
واحدة. لكن معظم هذه الأوعية قد افرغتها ميول
الطبيعة من محتواها، واغلب هذه الاغصان قد فصلها
سوء مصيرها عن جزعها. إلّا أن حياتي، يا عزيزي
توماس، هي جزء من كيان كلوسستْر، الوعاء الطافح
بدم ادوارد، هذا الغصن المتفرّع من الشجرة الملكية
الذي انكسر، فسال كل نسغه الحيوي هدراً تحت
ضربة فأس الجاني، وتناثرت اوراقه وجفّت تحت
وطأة سعير الحسد الذي ومض في بريق سكّين
القاتل حين قطرت منه دماء المغدور الذي كان دمه،
يا جون دي غان، جزءاً من دمك والسرير والرحم
والنزق والنهج الذي سرت عليه، كلها مجتمعة

جعلت منك رجلاً مميّزاً. فبها عشتَ وازدهرت، وستظل جذورك متأصلة في أعماقه. وقبولك هذا بموت ابيك معناه انك وافقت على هلاك اخيك التعيس الذي كان صورة حيّة تمثّل شخص والدك الكريم. لا تعتبر ذلك صبراً جميلاً، يا غان، لأنه في الواقع يأس مرير. ثم ان قبولك بمقتل أخيك مفاده أنك تعرّض قلبك بالذات للطعن بدون ان تأتي بأي جهد لتحميه، اذ تُقدّمه للذبح كالنعاج. وما نسمّيه صبراً لدى الناس العاديّين ليس سوى جبن مشين معشعش في صدرك النبيل. ماذا أقول لك ؟ إعلم جيداً ان أفضل وسيلة لصيانة حياتك هي الانتقام لمقتل نسيبي كلوسسْتر.

جون دي غان: هذا النزاع فرضه الله علينا، لأن ممثله على الأرض أعني ابنه الحبيب، وتحت انظاره المقدسة، تمّ اغتياله الجماعي، فإن كان هناك في الحقيقة حقيقة جريمة، لن تتقاعس السماء عن الانتقام لها، ما دمت لن أجسر ابداً على رفع يدي الغاضبة على ممثله في هذه الدنيا.

الدوقة : لمن عساي ان اشتكي اذاً، وا اسفاه ؟

جون دي غان: لله وحده نصير الأرملة ومغيثها.

الدوقة : فليكن ... وداعاً يا صديقي القديم جون دي غان. ستذهب الى كوفنتري لتشهد المعركة بين ابن أخيك

هيرفورد والشرس موبري. كم أودّ أن يكون عبء
إهانة زوجي ثقيلاً على رمح هيرفورد حين يخترق
صدر الجزار موبري. واذا، لا سمح الله، فشلت
المحاولة الأولى، سيسقط وقر جرائم موبري على
كاهل هذا الأخير ويسحقه ويهشّم ضلوع حصانه
الجافل، فيرمي فارسه أرضاً ويتركه تحت رحمة ابن
أخي هيرفورد. وداعاً ايها الشيخ الوقور. لا بد لأرملة
اخيك من ان تختم حياتها بالألم رفيقها الدائم في
هذه الأيام.

جون دي غان: وداعاً يا أختي. عليّ أن أذهب الى كوفنتري. أرجو
أن ترافقك السعادة كما لو كنتِ ذاهبة بصحبتي.

الدوقة : لديّ كلمة أخيرة... الألم عادةً يقفز حيث يقع لا
لأنه خفيف وفارغ بل لأنه ثقيل الوطأة. استأذنك
بالذهاب قبل ان اقول ما أريد، لأن الحزن لا يهدأ
حتى حين يبدو صاحبه منهوك القوى. أوْصِ اخي
بي خيراً، يا ادموند يورك، لأنال منه كل ما يطيب
لي... لا تذهب هكذا. وإن يكن هناك كل ما يهمك
امره، لا تذهب مسرعاً. لأني اودّ ان اتذكّر غير ما
أعاني. قل له، لكن ماذا ؟ قل له ان يأتي عاجلاً الى
زيارتي في « بلاشي ». وا اسفاه، ماذا سيشاهد هذا
العجوز يورك ؟ لا شيء سوى مساكن خالية

وجدران عارية وأمكنة خاوية ومماشي ينعب فيها غراب البين. وماذا سيسمع ؟ ليس هنا من هتافات، بل أنّات المساكين أمثالي ؟ أوصِه بي خيراً، وقل له أن لا يذهب الى هناك ليعاني المشقات بحثاً عن الالم الذي سيجده في كل مكان. هذا وداعي الاخير، وها هما عيناي تزرفان الدمع على فراقك.

(يخرجان).

المشهد الثالث

في سهل كوسْفورْد كرين قرب كوفنْتري

الحلبة جاهزة والعرش منصوب والشهود والموظفون متأهّبون.

(يدخل لورد مارشال وأوميرل)

مارشال : مولاي أوميرل، هل هنري هيرْفورْد مدجّج بالسلاح ؟

اوميرل : من رأسه الى أخمص قدميه، وهو ينتظر دخوله الميدان على أحرّ من الجمر.

مارشال : ودوق نورفولك الشجاع المتحمّس يترقّب إشارة صوت البوق لدعوته الى القتال.

اوميرل : هكذا استعد البطلان وهما ينتظران وصول جلالته.

(تصدح الموسيقى. يدخل الملك رتشرد ويتقدم للجلوس على عرشه. جون دي غان وغيره من اللوردات يأخذون أمكنتهم، ينفخ البوق ثم يجيبه بوق آخر من الداخل. حينئذ يدخل نورفولك بكامل سلاحه يتقدّمه أحد الحجّاب).

الملك رتشرد : يا مارشال، إسأل هذا المقاتل لماذا هو قادم بكامل سلاحه، ولماذا يرتدي بزّة الفروسية ؟ من يريد أن ينازل، وما هي مشكلته ؟ عليه أن يقول الحقيقة حسب قسمه وتعهداته كفارس، وأنا أسأل السماء أن تعين بسالته.

نورفولك : اسمي توماس موبري دوق نورفولك. أتيت الى هنا وفاءً لقسمي الذي اسأل السماء ان لا تسمح لأي فارس بأن ينقضه، كي أحمي حقوقي وأظهر ولائي وخضوعي لله أولاً ولمليكي، ثم أصون ذرّيتي من شرّ دوق هيرفورد الذي يتهمني، ولكي أثبت له بعون الله وقوة ساعدي وبراعة دفاعي عن نفسي، أنه خان إلهي ومليكي، كما خان عهدي أنا أيضاً. وكذلك لأقاتل في سبيل الحق. لذا أسأله تعالى أن يكون بعوني وينصرني. (يجلس).

(ينفخ البوق ويدخل بولينبروك مدجّجاً بالسلاح يتقدّمه أحد الحجّاب).

الملك رتشرد : يا مارشال إسأل هذا الفارس المسلّحْ من هو، ولماذا أتى إلى هنا هكذا بكامل سلاحه ودرعه الحربي ؟ وأفهمه بموجب قوانيننا انّ عليه أن يبرّر ظهوره هكذا.

مارشال : ما هو اسمك، ولماذ مَثُلْتَ هنا أمام الملك رتشرد، ودخلت الميدان الملكي ؟ من أتيت تقاتل، وما هي مشكلتك ؟ تكلم كفارس أصيل فينصرك الله على أعدائك.

بولينبروك : أنا هاري هيرفورد سيّد لنْكاسْتر ودرْبي. جئت الى هنا مسلّحاً لأثبت بنعمة الله وبقوّتي الذاتية لتوماس موبري دوق نورفولك انه ليس سوى ماكر خسيس وخائن ذميم أمام إله السماء والملك رتشرد وأمامي أنا أيضاً. وبما أني أقاتل في سبيل الحق ستنصرني السماء عليه حتماً.

مارشال : تحت طائلة عقوبة الموت، لا يتجرّأ أحد على ارتكاب الحماقة والجسارة في تعدّي الحدود المرسومة سوى مارشال والضباط المعيّنين للنظر في مخالفات قواعد هذا القتال.

بولينبروك : اسمح لي، يا لورد مارشال، بأن أقبّل يد مليكي، وأن أجثو على ركبتي أمام جلالته. لأني أما وموبري قد تعاهدنا كرجلين على القيام بهذه الزيارة العسيرة.

فلنستأذن رسمياً بالانصراف، شتى أصدقائنا ولنودّعهم بمودّة ولياقة.

مارشال : (للملك رتشرد) : هذا الرجل الماثل أمامك يحيّي جلالتك بكل إخلاص ويرجو ان يقبّل يدك ويستأذنك بالانصراف.

الملك رتشرد : (وهو ينهض) : أودّ أن أنزل وأضمّه الى صدري، يا ابن عمي هيرفورد، آملاً ان تساعد الظروف على تحقيق رغبتك في هذا القتال. الوداع، يا نسيبي. اذا سُفك دمك اليوم، يسعني ان أندبك، لكني لن انتقم لمقتلك.

بولينبروك : لا أريد ان تزرف الدمع عيون شخص مثلك، إذا اخترق رمح موبري ضلوع صدري. (للورد مارشال) يا عزيز اللورد، استأذنك بالانصراف وأستأذن أيضاً إبن عمي النبيل ولورد أوميرل. انا لست الآن مريضاً، وإن كنت أغالب الموت. لكني شاب رشيق ينفر منّي الفرح والابتهاج (يلتفت نحو جون دي غان) مثلما يجري في ولائم الانكليز أتوجّه في آخر المطاف الى الأفضل وانتهي بالألطف. أمّا أنت يا علّة وجودي على الأرض، يا من جدّدت نشاطك في شبابي، وبعثت فيّ قوّةً مضاعفة تهدف الى الفوز الباهر. بارك باستحقاقاتك رأس رمحي كي يخترق،

كالشمع جنب موبري ويزدهي لمعان اسم جون دي غان للاشادة بشجاعة ابنه الباسل.

جون دي غان: لتأخذ السماء بيدك الخيّرة وتجعلك عند المقارعة سريعاً كالبرق، وتسدّد ضرباتك البطّاشة، فتنقضّ كالصاعقة على خوذة عدوّك اللدود، وتضاعف حماس شبابك لتبلغ غايتك المنشودة في الانتصار.

بولينبروك : ارجو من بسالتي ومن القديس الفارس جاورجيوس مساعدتي على ادراك مرامي

(يجلس).

نورفولك : مهما كتب الله لي من نصيب هنا، لا بد لي من الموت أو الحياة في سبيل الملك رتشرد، لكوني وجيه وكريم صافي النية، وأحد أنصاره الأوفياء. لا يسع الأسير أن يتذوّق بهجة أشدّ عندما ينفض عنه قيود العبودية ويستعيد حريته الغالية، بدون رقيب كما هو حال نفسي المرتعشة في هذه الجولة القتالية اثناء منازلتي خصمي. يا مليكي القدير، وانتم يا رفاقي وسادتي الأعزاء، لكم مني جميعاً اطيب التمنّيات، راجياً ان تقضوا السنين القادمة باليمن والبركات. أنا ذاهب الى المعركة بفرح وصفاء كأني ذاهب الى استعراض رائع يخيّم عليه السرور والهدوء باستمرار.

الملك رتشرد : الوداع يا سيد، إمضِ بأمان لأني أرى الطمأنينة

تتلألأ في عينيك لما يشعّ فيهما من قيم وفضائل. يا مارشال مُرْ بافتتاح المعركة. (يعود الملك واللوردات الى مقاعدهم).

مارشال : هاري دي هيرفورد ولنْكاسْتر ودرْبي، إستلم رمحك، وليساعدك الله على مناصرة الحق.

بولينبروك (وهو ينهض) : وأنا كلّي آمال، أصرخ : آمين.

مارشال (لأحد الضباط) : خذ هذا الرمح لتوماس دوق نورفولك.

الحاجب الأول: هاري دي هيرفورد ولنكاستر ودرْبي، أتى الى هنا ليخدم الله والملك ويبرّر نفسه وليثبت ان دوق نورفولك توماس موبري هو عدوّ الله وعدوّ ملكه وعدوّ ذاته. لذلك دُعِي الى خوض المعركة، وإلّا اعتُبر هيرفورد منافقاً محتالاً.

الحاجب الثاني: أتى توماس موبري دوق نورفولك الى هنا للدفاع عن نفسه، وليثبت ان هاري دي هيرفورد سيد لنكاستر ودربي هو من أعداء الله ومليكه ونفسه، وإلّا كان جباناً مرائياً. لذلك تراه ينتظر إشارة بدء المعركة.

مارشال : انفخوا الابواق. وهيّا اهجما، أيها المقاتلان. (تسمع موسيقى الهجوم. ويلقي الملك الى الميدان المغلق بعصاه التي ترمز الى عكس الأوامر). لكن توقّفا. فقد ألقى الملك بعصاه.

الملك رتشرد : كل واحد منكما عليه ان يطرح سلاحه ارضاً، ويذهب الى مقرّه. (لجون دي غان وللسادة المساعدين) تعالوا وناقشوا الموضوع معنا... لتنفخ الأبواق الى ان تشرح لكل دوق من الحاضرين ما نكون قد قرّرناه. (تصدح الموسيقى طويلاً). (للمتقاتلين) اقتربوا واصغوا الى ما قرره مجلسنا نظراً الى عدم الرغبة في تلويث ارض مملكتنا بدم عزيز يتحتّم علينا ان لا نفرّط بنقطة منه، ولا بد لعيوننا من ان تشيح عن منظر الجراح البليغة التي احدثتها سيوف جيراننا، وأن يستفيق الإباء في أعماق صدورنا كنسر طموح ينزع الى التحليق فوق غيوم الضغينة والحسد والعداء، وأن ترفرف أجنحة السلام في سماء بلادنا حيث يغفو الناس على هدي السكون والصفاء. فبعد أن روّعهم قرع الطبول وصوت الأبواق الحاد مع صليل السيوف الغاضبة التي تطارد الوئام الوادع في ربوعنا الهادئة حين اضطررنا الى خوض معارك تهدر دماء أهلنا عبثاً، نطلب بصوت عال إبعادك عن مناطقنا. وستظل، يا ابن عمّي هيرفورد منفيّاً تحت طائلة العقاب بالموت إن عدت قبل أن يمرّ بنا الصيف عشر مرات ليخصب حقولنا، ولن تشاهد منازلنا الجميلة بل ستجرّ قدميك على دروب الغربة البعيدة الوعرة.

بولينبروك : لتكن مشيئتك. هناك أمر واحد يعزّيني، هو أن الشمس التي تدفئكم هنا ستسطع كذلك لتدفئني انا ايضاً. لان الاشعّة الذهبية التي ترسلها اليكم ستنتشر في اجوائي وتنير دروب منفاي.

الملك رتشرد : أمّا أنت يا نورفولك، فقد أصدرت بحقك حكماً أقسى، يصعب عليّ أن أعلنه لك. لأن مدّة نفيك الأليم لن يحدّها وقت معلوم. وهذا الحكم الطويل يقضي عليك بأن لا تعود ابداً إلينا. فكن على بيّنة من أمرك.

نورفولك : هذا حكم جائر، يا مولاي الملك، لم اكن انتظر خروجه من فمك بالذات. هذه ضربة قاضية ترديني في هوّة بؤس وشقاء، لا مفرّ منها. بينما انا أستحقّ من قبلك مكافأة أفضل منها بكثير. لأن اللغة الانكليزية التي حفظتها منذ أربعين عاماً سأضطر هكذا الى نسيانها. ولساني لن يفيدني بعد الآن كأنه عود أو قيثارة بدون أوتار او كآلة محجوزة في علبتها وموضوعة بين أيد لا تجيد استعمالها وضبط نبراتها. وقد حبست لساني داخل فمي وحكمت على شفتيّ بأن تصبحا كسجّان نطقي. وأنا قد طعنت في السنّ ولم أعد قادراً على تعلّم لغة جديدة. فما الزامك اياي بهذا الصمت إلّا حكم بإعدامي على

مهل في بلاد لا أعرف لغتها، ولا سبيل لي لمخاطبة أهاليها الذين يجهلون لغة بلدي.

الملك رتشرد : لا فائدة بتاتاً لندبك المؤسف. لأن شكواك جاءت متأخرة بعد صدور الحكم عليك ووجوب تنفيذه بدون امهال.

نورفولك : هكذا سأدير ظهري لشمس بلادي وأمضي لأعيش في كآبة ليل دامس السواد لا ينتهي. (يهم بالانسحاب).

الملك رتشرد (لنورفولك) : عُدْ وتلقَّ هذا الوعد (للمنفيّين الاثنين) ضعا ايديكما المنبوذة على هذا السيف الملكي، واحلفا بالتزام الخضوع المفروض عليكما، تجاه السماء، على أن ترفضا عدم خضوعكما لأمري، واحلفا ايضاً انكما في منفاكما لن تتصاحبا ولن تتقابلا ولن تتراسلا ولن يسلّم أحدكما على رفيقه ولن تتخاطبا ولن ترويا غليل حقدكما باتفاقكما عن سابق عمد وإصرار، على حبْك الدسائس وتدبير المؤامرات بغية النيل مني شخصياً أو من حكومتي أو من رعاياي أو من بلادي.

بولينبروك : أقسم على التقيّد بذلك.

نورفولك : وأنا أيضاً أقسم على تنفيذ كل هذه الفروض.

بولينبروك : يا نورفولك، لديّ كلمة أخيرة مصاغة بلهجة العداء.

في هذه اللحظة، لو سمح الملك لكلَيْنا بحرية التصرف، لكانت نفس أحدنا الآن تائهة في الفضاء بعيداً عن جسدنا هذا المبعد عن هذه الديار. إعترف بخيانتك إذاً قبل أن تنزح عن هذه المملكة المضيافة. وبما أنك سترحل بعيداً جداً أنصحك بأن لا تحمل فوق شقائك عذاب ضميرك المستيقظ بعد فوات الأوان.

نورفولك : لا، يا بولينبروك. لو كنت أنا خائناً لفضّلت أن يُحذف اسمي من صفحة الوجود، وأنا بعيد عن السماء، كما أنا بعيد عن وطني. غير أن رب السماء يعرف جيداً من أنت كما نعلم نحن كلنا ايضاً وستعلم جلالتك بالأمر وإن بعد حين. ومن الآن وصاعداً لن يتسنّى لي ان أضيع، لأني عالم بأن طريقي سيكون على الدوام خارج سبل انكلترا.

(يخرج).

الملك رتشرد (لجون دي غان) : يا عماه، إني ألمح في عينيك ما يسحق قلبك من الحزن. لذا حذف مظهرك الحزين أربع سنين من نفيك الطويل. (لبولينبروك) بعد انقضاء الشتاء القارس ست مرات ستعود طبعاً من منفاك الى وطنك، وسنرحب بك جميعاً حينذاك.

بولينبروك : ما اطول مرور الزمن الكامن في هذه الكلمة

الوجيزة. فعبور الشتاء العابس اربع مرات، والربيع الضاحك أربع مرات لا يتمّ هكذا سريعاً. إنما هذه هي نظرة الملوك الى امثالنا المهملين.

جون دي غان: اشكرك، يا مليكي الحبيب لأنك عطفت عليّ واختصرت مدة نفي ابني اربعة أعوام. لكن ذلك لن يعود عليّ بفائدة تذكر. لأني قبل انقضاء السنوات الست التي سيقضيها بعيداً عني بأيامها المكفهرّة سينطفئ سراج حياتي، وقد أوشك زيته ان ينضب ولهيبه ان يخبو وسينقضي معه ليل عمري الى الأبد، اذ يكون فتيله قد احترق ونوره قد خبا، وأغمض الموت اجفاني الى الأبد فلن أرى ابني ثانية.

الملك رتشرد : هوّن عليك، يا عمّاه. ستحيا بعد الآن سنين عديدة.

جون دي غان: ليس في وسعك ان تضيف الى عمري دقيقة واحدة، لكنك تستطيع أن تقصّر أيامي بالحزن واليأس، ويمكنك ان تختصر لياليّ. غير انك لن تقوى على تجديد عزّي. يتسنى لك ان تضيف التجاعيد الى جبيني إلا أنك لن تستطيع أن تزيل الهمّ الذي ينخر فؤادي. لكلامك قدرة ان تجعل عمري يساير مشيئتك حتى بلوغ أجلي. لكن الموت لن يمكّنك من إعادة الحياة اليّ.

الملك رتشرد : لقد أُبعد ابنك بناء على قرار عادل حكيم انت

ساهمت في اصداره بصفتك أحد أعضاء مجلسي، فلماذا تعارض الآن عدالتي التي وافقت عليها.

جون دي غان: لأن الأطعمة اللذيذة المذاق تميل عند الهضم الى الحموضة. انت سألتني رأيي كقاضٍ. وكم كنت أفضّل ان تطلب مني مناقشة الموضوع كأب. ليته كان غريباً وليس ولدي، لكنت عاملته على انحرافه بحلم أوسع. لكني فضّلت أن أتجنّب التحيّز، وبحكمي هذا حطّمت حياتي بيدي. غير أني كم رجوت أن يقول لي أحدكم أني كنت شديد القسوة في القيام هكذا بواجبي. وقد آلمكم ان يعمل لساني على اذيّتي مرغماً.

الملك رتشرد: الوداع، يا ابن العم... وانت ايضاً، يا عمّاه، ودّعه بهدوء، لأننا أبعدناه لمدة ست سنوات، وعليه أن يمضي الى أقاصي منفاه.

(تصدح الموسيقى. ويخرج رتشرد وحاشيته).

اوميرل: الوداع، يا ابن عمي. وما لا يسعك ان تقوله الآن، يمكنك ان تكتبه لنا من مكان اقامتك الجديد.

مارشال: انا لا استأذنك بالانصراف، لأني مصمّم على مرافقتك على متن حصاني بقدر ما يتيح لي طول المسافات.

جون دي غان: لماذا تقتصد هكذا في كلامك، ولا تردّ على ما يظهره لك أصدقاؤك من عطف ومودّة ؟

بولينبروك : لا أجد العبارات اللازمة لوداعك حين يتحتّم على لساني ان يبوح بما يمزّق فؤادي من الألم والعذاب الدفين.

جون دي غان: حزنك ليس له من سبب سوى بعدك عن نظري.

بولينبروك : اثناء غياب الفرج يظل الغمّ حاضراً في ذهني على الدوام.

جون دي غان: كم يتطلّب من الوقت انقضاء الشتاء ست مرات ؟ ثق بأن هذه المدة ستمرّ بسرعة.

بولينبروك : أجل، على الانسان في أيام سروره. لكن الكآبة تطيل الزمان عشرة أضعاف على من يتخبّط في لجج الشقاء.

جون دي غان: افترض أنك مسافر للقيام بنزهة مرحة.

بولينبروك : لا يلبث قلبي أن يكذّب واقعي بتنهيدة حزينة، لأنه مُجبر على إقامة قسريّة في غربة قاصية قاسية.

جون دي غان: أُنظر الى درب رحيلك الأليم كأنه إطار ضيّق تحصر فيه غيابك الطويل.

بولينبروك : أيّة خطوة من خطواتك المرهقة تبعدني عن كل عزيز على قلبي. وما عليّ إلّا ان أتدرّب على السير في وعور منفاي. أخيراً حين أعود حراً، بماذا

يمكنني أن أتبجّح إن لم يكن بانطوائي على بؤسي وعذابي.

جون دي غان: جميع الأمكنة التي يتنقّل فيها نظري هي لدى العاقل المتبصّر مرافئ أمان وارتياح، تعلّمك الضرورة على اعتبارها هكذا. وليس من وسيلة كالضرورة تؤدّي الى ممارسة الفضيلة. إعتبرْ أن من يبعدك عنا ليس الملك، وان الشقاء لا يثقل على كاهل الانسان عندما يريد ان يفترض أنه يتحمّله بسهولة. اذهب وتصوّر اني ارسلتك لاكتساب المزيد من الحنكة والمجد، ولا تفكّر بأن الملك قد نفاك، أو افترض ان الطاعون الفتّاك يحوم في اجوائنا، وأنت هربت منه الى مناخ سليم نقي. أطعْني وتخيّلْ أن كل ما تملكه نفسك من عزيز هو حيث انت ذاهب لا حيث تودّ ان تعود سريعاً. أجل، تخيّل ان العصافير المغرّدة تنشد لك أعذب الالحان، وأن المرج الأخضر الذي تطأه قدماك سجادة قاعةٍ فسيحة تتأمّلها باعجاب، وأن الازهار فتيات حسان تناجيك وأن سيْرك ايقاع رقصة رائعة ساحرة. لأن الحزن مهما كان اليماً لا يستطيع ان ينهش قلب الانسان الذي يهمله وينظر اليه باستخفاف وازدراء.

بولينبروك : من يقوى على إمساك الجمر بيده وإن فكّر في جليد

جبال القفْقاس ؟ أو يلهي شهيّته الى لذيذ الطعام بمجرد التفكير في مأدبة وهمية ؟ أو التمرّغ على ثلوج الشتاء بدون ان يرتجف من الصقيع وإن حلم بحرارة الصيف الدافئة ؟ لا، لا، هذا مستحيل كما أن التفكير بالخير لا يوقظ الميل الى الشرّ، وأن انياب الألم لا تكون جارحة عندما تغرز في الجسم بدون ان تدميه.

جون دي غان: تعال، تعال، يا بنيّ لأرشدك الى طريقك. اه، لو كنت شاباً نظيرك وفي موقفك، لما مكثت هنا لحظة.

بولينبروك : الوداع اذاً، يا أرض أجدادي انكلترا. الوداع ايتها الديار العزيزة على قلبي، يا أمي ومرضعي التي لا تزال تحتضنني وتضمّني الى صدرها بحنان. اينما تهت يسعني أن أفتخر بأني، ولو كنت بعيداً عن ترابك، لا ازال انكليزياً أصيلاً.

(يخرج الجميع).

المشهد الخامس

في قصر الملك بلندن.

(يدخل الملك رتشرد وباكوت وكرين ثم أوميرل).

الملك رتشرد : لقد لاحظت ذلك... الى اين، يا ابن العم اوميرل، رافقت هيرفورد السامي ؟

اوميرل : رافقت هيرفورد السامي، كما تدعوه، الى أول طريق عريض، ثم تركته يكمل دربه وحده.

الملك رتشرد : قل لي، هل سبّب الفراق هطول الدموع بغزارة ؟

اوميرل : انا من جهتي لم أذرف دمعة واحدة، لو لم تهبّ ريح الشمال الشرقية بشدة فائقة وتلطم وجهي بحدّة آلمت عينيّ وكادت صدفة تُسيل دمعة ناشفة على هذا الفراق العسير.

الملك رتشرد : وماذا قال ابن العم، عندما غادرته ؟

اوميرل : قال لي : الوداع. وإذْ خشيت أن يعصى لساني لفظ هذه الكلمة البغيضة، تظاهرت بأن الألم خنق النطق في حنجرتي. فغصّ صوتي وانحبس في حلقي ولم أنبس ببنت شفة. لعمري، لو كانت لفظة وداع أضافت عدّة ساعات الى نفيه الوجيز، لكان حظي جاد بمجلّد ضخم من عبارات الوداع. لكن بما ان هذا الأمرْ مستحيل، لم يتلفّظ بكلمة واحدة.

الملك رتشرد : هو ابن عمنا، يا ابن العم، وإن يكن سلوكه مشبوها. ولن يلبث ان يعود الينا بعد حين من منفاه ليزور اهله. ثم انا وبوشي وباكوت الموجودان هنا وكذلك كرين، لاحظنا عطفه على عامّة الشعب، وقد دخل الى قلوبهم بتواضعه وإلْفته، فبادلوه المودّة والاحترام. وقد اجتذب اليه الفقراء منهم بابتساماته وخدماته كما سيعمل على اكتساب حب الناس هناك في منفاه الموحش. وعندما سلّم على سائق عربة مَرَّ بقربه، هتف : « حفظك الله، يا سيدي ». وانحنى امامه بوقار، وشكره على لياقته كمواطن لطيف، كما لو كانت انكلترا تخصه بالوراثة وكأنه أقرب المقرّبين الى الجميع.

كرين : حسناً، ها قد غاب عنا، وغابت معه كافة خواطره الغريبة. لنفكّر الآن بالمتمرّدين الذين برزوا في ايرلندا، حيث لا بدّ لنا من التصدّي لهم، يا مولاي، ومنعهم من الاهتداء الى من يجود عليهم بمساعدات مالية جديدة، ومن مشاكل إضافية تفيدهم بقدر ما تضرّ بمصالح جلالتك.

الملك رتشرد : سأخوض أنا شخصياً هذه الحرب المضنية. وبما أن جهودي فعّالة بفضل رجال بلاطي المخلصين وكرمي غير المحدود، سأضطر الى حماية ارزاقي

الملكية التي تؤمّن لي وارداتها كل ما يلزمني لقضاء شؤوني الملحّة. واذا لم يكفِ ذلك سيلجأ معاونيّ الى بذل اقصى الجهد لجمع المبالـغ الضرورية لمشاريعي، لأني أنوي التوجّه فوراً الى ايرلندا.

(يدخل بوشي).

الملك رتشرد : (يتابع) : يا بوشي، ما وراءك من الأخبار ؟

بوشي : جون دي غان العجوز تملّكه المرض، يا مولاي، وقد باغته الإعياء، وهو يرجو جلالتك ان تذهب اليه في اقرب فرصة لمشاهدته.

الملك رتشرد : أي هو الآن ؟

بوشي : في ايلي هاوس.

الملك رتشرد : يا إلهي، أوعز الى طبيبه أن يرحّله فوراً الى قبره. فيؤمّن لنا غطاءُ نعشه نسيجاً يكفي لخياطة بزّات جنودي كي يخوضوا حرب ايرلندا. تعالوا، يا سادة، نذهب لزيارته وأنا أتمنى، إن شاء الله، مع كل ما نبذله من جهد للاستعجال، ان لا نصل بعد فوات الاوان.

(يخرجون).

الفصل الثاني
المشهد الأول

في شقة من قصر ايلي هاوس.

(جون دي غان ممدد على سرير ليرتاح، ودوق يورك
وبعض اللوردات يغفون بقربه).

جون دي غان: هل سيأتي الملك ؟ اتمنّى ان ألْفظ انفاسي الأخيرة بحضور جمع مسالم مثلكم يعمل على التخفيف من نزق شبابه.

يورك : لا تقلق، ولا تفقد أعصابك، لأن النصائح تكاد تصل الى أذنيه.

جون دي غان: يقال ان صدى صوت الأموات يلفت الانتباه نظير نغم عميق القرار. عندما تكون فرص الكلام نادرة لا يطلقه صاحبه جزافاً. لأن الحقيقة التي يهمس بها من يلزمون جانب الحذر لا يتلفّظ بتعابيرها إلا

المنازعون. ولأن أقوال من لم يبقَ لديه ما يعلنه يستمع اليه عدد أكبر ممن يتوقّعون من شبابه وصحته ان يتدفق حديثه بغزارة من بين شفتيه. كما ان الرجال في خاتمة حياتهم عادة يصغي السامعون الى حديثهم اكثر من أي وقت مضى اثناء وجودهم على هذه الأرض. وهكذا يظل أثر غياب الشمس، نظير آخر المقطوعة الموسيقية، عالقاً في الذهن، وأبقى من كل ما سبقه، لأن طعم آخر الحلويات هو دائماً أحلى من أوّلها. وبما ان رتشرد لم يرد ان يصغي الى نصائحي ويستفيد من خبرتي، يمكنه الآن ان يصمّ أذنه عن سماع كلامي الحزين، وأنا مشرف على الموت.

يورك : كلا، ان اذنه مأخوذة بإطراء المتزلّفين وبالمديح الموجّه الى سلطته وبالاشعار الماجنة التي يصغي دوماً الى نكهتها بروح الشباب ومرحه، وبقصصٍ على الطريقة الايطالية الجذّابة التي يميل اليها شعبنا الخبيث الماجن. ان بعض الحماقات السارية بين الناس، بشرط ان تكون أساليبها جديدة طريفة، سرعان ما تنتشر وتصل الى سمع الملك. بينما هو لا يقبل بالنصائح غالباً إلّا بعد فوات الأوان، لأنها كثيراً ما تتمرّد على منطق العقل. لذا يجمل بك أن لا تسعى

الى توجيه الإرشاد لمن يبحث هو نفسه عن طريقه. وانت تكاد تمتلك انفاسك وتصرّ على المجازفة بها غير مبالٍ بفقدانها.

جون دي غان: يخيّل اليّ اني نبيّ نزل الوحي عليّ بغتة. وها انا ذا على وشك بلوغ أجلي، انبئك بأنه يشبه النار المتأجّجة التي تتآكل ولا يلبث لهيبها أن يخبو وينطفئ. بينما الامطار الهادئة تدوم طويلاً بعكس العواصف الهوجاء التي سرعان ما تسكن. ومن يركض بعجلة لا بد له من ان يتعب سريعاً. كما إن ابتلاع الأكل باستعجال يكاد يخنق من يزدرد الطعام ويلتهمه. هكذا أباطيل الدنيا التافهة، وهي كغراب البين الجشع الذي لا يعرف الشبع، لا تلبث ان تزول. ما أغرب عرش هذا الملك العظيم الشأن، وما أروع صولجانه الفريد، في هذه الدنيا الواسعة تحت سقف هذا المقرّ الذي يتربع عليه الإله المشتري بأبهة. أنه أشبه بجنة عدن بل يضاهي نصف الفردوس الارضي، وهو كالحصن المنيع الذي شيّدته الطبيعة لتحتمي فيه من غدر الزمان، ومن ويلات الحروب التي يشنّها البشر المتوسّعون في هذا الكون غير المحدود. هذا الحجر الكريم الذي يرصّع إطاراً من الفضة، ويصونه كصور منيع أو كحفرة عميقة

تحيط بقصر شامخ، وتقيه من هجمات الغريب التعيس الحاسد. هذا المكان المقدس القائم على ارض مباركة. هذه الدولة الكبيرة المسمّاة انكلترا. هذه المرضع الحنون والأم الرؤوم التي أنجبت ملوكاً امتازوا بالعظمة والمقدرة على مرّ العصور، وفاخروا بعراقة نسبهم في الدفاع عن الحق بشهامة وفروسية حين وصلت منجزاتهم الشهيرة الى أرض الشرق والقبر المقدس الذي شاءت ان تحميه من عوادي الزمان. هذه البقعة الفريدة في أرض شعّ منها النور وأضاء سائر أنحاء الدنيا. هذا الوطن العزيز الحامل على اكتافه أمجاد العالم المتحضّر. هذه الديار التي يحاول البؤس أن يهدمها الآن، ولا أخشى من ترديد قولي هذا وأنا على حافّة قبري. هذه الأرض الخيّرة التي تكاد تصبح كبقعة الزيت على صفحة ماء ملوّث عكر، انكلترا هذه المنطقة التي كانت نبراس الشعوب تكاد تنوء تحت نير العبودية. ما أفظع هذه الفضيحة المشينة التي توشك ان تشمل كل معالم الحياة الكريمة. كم أتمنى ان يتوقّف هذا الانحلال والانهيار قبل ان افارق الحياة، فأموت قرير العين مطمئن البال.

(يدخل الملك رتشرد والملكة وأوميرل وبوشي وكرين وباكوت وروس وويلوبي).

يورك : ها قد جاء الملك. فعليكم ان تداروا فورة شبابه. لأن المهر الفتي يتحمّس كثيراً عندما يلاقي ما يثير نزقه.

الملكة : كيف حال عمنا لنكاستر ؟

الملك رتشرد : كيف حال الرجل الباسل، وكيف اضحى اليوم وهو عجوز ؟

جون دي غان: كم تنطبق هذه التسمية على شخصي المتقدّم في السنّ : غان العجوز. في الحقيقة لم يبقَ مني سوى جلدة تكسوها التجاعيد. لقد لازم الألم، في أعماق كياني، صياماً طويلاً مملًّا. فأصبح قادراً على متابعة الصيام بدون ان تجفّ طراوته. لقد سهرت كثيراً على انكلترا المتناومة. ومن المعلوم ان السهر يسبب الهزال المضني الذي يجفف اللحم. انا حرمت من السعادة التي تخالج قلب الأب بمشاهدة أولاده. وهذا الحرمان أدّى الى ما أنا عليه من حالة يرثى لها، تدعو الى إلقائي في حفرة الركام والمهملات لأن جسمي لم يعد صالحاً إلّا ليوارى الثرى في مثواه الأخير.

الملك رتشرد : هل يجوز للمريض المنازع أن يتلاعب هكذا بعواطف أحبّائه ؟

جون دي غان: كلّا، ان شقائي يلهيني عمّا يحيط بي من أسى، بينما

انت تعمل على محو اسمي مع جسمي من عالم الوجود. وأنا بدوري أؤكد لك، أيها الملك الرفيع الشأن، أني لا أودّ ان اتزلّف اليك للابقاء على راحتي وهنائي.

الملك رتشرد : وهل على المنازعين أن يتملّقوا الاحياء للحفاظ على كيانهم وأمنهم ؟

جون دي غان: لا، لا، الأحياء يتزلّفون الى الأموات ليصونوا مصالحهم.

الملك رتشرد : لكنك أنت المنازع تؤكد لي أنك لا تريد أن تتملّقني.

جون دي غان: لا، لا، أنت غير مشرف على الموت، لأني مريض اكثر منك.

الملك رتشرد : انا في تمام الصحة والعافية، اتنشّق الهواء المنعش، وأرى أنك انت المريض المدنف تحتاج الى العلاج.

جون دي غان: ان الذي خلقنا يعلم جيداً أنك أنت العليل. أمّا العلّة التي تدّعيها فيّ، فأنا أراها متملّكة في جسمك أنت، وفراش موتك هو هذا البلد الواسع الذي أمْرَضك وجعلك تتململ في نزاع طويل عجّلته عليك شهرتك وصولتك. اجل أنت المريض غير المبالي بسقمك تتّكل على الأطباء الذين يعالجون شخصك الكريم، وهم الذين أورثوك علتك المزمنة الخطيرة.

هناك ألف متزلّف يختبئون تحت تاجك الذي لا تناسب دائرته قياس رأسك الكبير الحجم. ومهما كان القفص الذي تحبسهم داخله واقياً، فإن أذاهم يمتدّ الى أعماق هذه المملكة لو كان جدك بعيد النظر لتوقّع حتماً ما سيجرّه ابنه من وبال على أولاده. ولكان صان كرامتك من التلوث الأخلاقيّ المتفشّي الآن، وكان تدبّر امره ليمنعك عن التدهور الى الدرك الاسفل الذي انتهيت اليه. أجل، يا ابن عمي، عندما تصبح سيّد العالم، لن تتمكّن من حكم هذه البلاد بعدل وإنصاف. كما أنك عندما لا تملك من حطام الدنيا سوى انكلترا، لن تستطيع ان تفسدها اكثر ممّا فعلت. انت الآن سيد انكلترا، لكنك لست في الحقيقة مليكها، لأن سلطتك الشرعية، يا صاحب الجلالة، أضحت أسيرة القوانين الصارمة و...

الملك رتشرد : وانت يا صاحب الفكر الهزيل، أيها الأبله السخيف، انت تحت وطأة الحمّى تهذي وتتجاسر على مخاطبتي باستخفاف، وعقليّتك الجامدة تتجلّى في شحوب وجنتيك، وتجعلني أخجل من نسبك الملكي اليّ. أقسم لك بعظمة عرشي، لو لم تكن شقيق أبي ادوارد الكبير لكنت قطعت لسانك الذي يلعلع في فمك النتن، ودحرجت رأسك الوقح من فوق كتفيك حالاً بدون تردّد.

جون دي غان: لا تشفق عليّ ولا توفّر رأسي، يا ابن اخي ادوارد، لكوني ابن أبيه ادوارد. فانك نظير البجع قد شربت من الدم الذي أسكرك. أمّا أخي كلوسستر النقي السريرة، تغمّده الله برحمته الواسعة مع سائر الابرار من رعايا ملكوته الابدي، فان روحه يشهد بأنك لن تتورّع عن سفك دم اولاده الصالحين. لا ترحم شقائي الحاضر، بل دع شراستك تطغى على عجز شيخوختي لتسحقني كزهرة ذابلة ذهبت الايام القاسية بنضارتها وأريجها. لكن فظاظتك لن تدعك تموت شريفاً شهماً بل ستعذّبك حتى آخر انفاسك النجسة عذاب إبليس في نيران الجحيم. ولتكن كلماتي الأخيرة هذه كالجلاد الذي سيضنيك ما حييت. خذني الى سريري، ثم الى قبري لأستريح. فمن لا يزال يحتفظ بالحب والإباء يحقّ له ان يتمتع بأطاييب الحياة.

(يخرج وقد حمله رجاله).

الملك رتشرد : أمّا من لم يبقَ لهم في الوجود سوى شيخوختهم وهزال عجزهم فليموتوا، لأن الحياة لم تعد تليق بهم. وأنت لم يبقَ لك سوى هذين العاملَيْن الذين لا يستحقّان غير ظلمة القبر.

يورك : ألْتمس من جلالتك أن لا توجّه كلامك هكذا إليّ أنا

الضعيف المريض، وقد خان الهزال شجاعتي. أؤكد لك أني أحبّك وأعزّك مثل هنري دوق هيرفورد لو كان هنا.

الملك رتشرد : كلامك معقول ومقبول. ان عطفه عليّ يشابه رعاية هيرفورد. وأنا كذلك أقابله بالمثل. علينا أن نرضى بالأمور على علّاتها.

(يدخل نورثمبرلند)

نورثمبرلند : يا مليكي المفدّى، يرجوك العجوز غان ان تذكره بالخير.

الملك رتشرد : وماذا قال لك ؟

نورثمبرلند : لم ينطق بكلام معيّن، لأن لسانه أضحى آلة بدون أوتار. وقد استنفذ العجوز لنكاستر كل كلامه وحياته.

يورك : أرجو أن أكون أنا أيضاً قد بدّدت كل امكاناتي. فالموت مهما كان غامضاً، من فضائله أنه يضع حداً للبؤس المرهق.

الملك رتشرد : لا بدّ للثمرة الناضجة من ان تسقط عن غصنها عندما يحين أوانها. ونحن ايضاً علينا أن نتمّم مهمّتنا ونكفّ عن هذا الحديث... تعالوا نفكر الآن بتجربتنا في ايرلندا. علينا أن نتفحص أحوال جنودنا المعقّدين الذين، إن تركناهم وحدهم لا يلبثون ان يتذمّروا

لأنهم يعيشون على أرض غريبة تضيّق عليهم سبل حياتهم. وبما ان هذه المغامرة تفرض كثيراً من الموجبات، سنلجأ الى الاستيلاء على الاواني الفضيّة وشتى أنواع الواردات والأرزاق والمفروشات التي كان يملكها عمّنا جون دي غان لنؤمّن ما نحتاج اليه من اموال وافرة.

يورك : الى أين سيصل بنا صبرنا ؟ الى متى سيسبّب لي الاحترام العطوف كل هذا القلق وشغل البال ؟ فان موت كلوسستر وإبعاد هيرفورد وإهانة غان والأضرار التي لحقت بإنكلترا وعرقلة زواج المسكين بولينبروك وتحقيري أنا بالذات، كلها لم ترسم الكمد على وجهي المشرق ولم تَسِمْ جبين مليكي بأية تجاعيد. أنا آخر أولاد النبيل ادوارد الذي كان أخوه وليّ العهد أمير منطقة وايْلس. في الحرب لم يكن هنا أسد أشرس من هذا الفتى، وفي السلم لم يكن حمل أسلس وألْطف منه كفرد من الأسرة الملكية. ان ملامحك تشبهه يوم كان في مثل عمرك. لكنه عندما قطّب حاجبيه، فعل ذلك امام الفرنسيّين لا أمام أصحابه، وكان كل ما صرفه بسخاء من جني ساعديه لا ممّا جمعه والده المظفّر من مال وفير. ولم يلطّخ يديه بدم أنسبائه بل كان

يغمسهما فقط بدم أعداء بني قومه. أنا يورك لم أدع الألم يتغلب عليّ، يا رتشرد. وإلّا لما أقدمت على مثل هذه المعارضة.

الملك رتشرد : اذاً، يا عماه، ما الأمر بالضبط ؟

يورك : يا مليكي العزيز، سامحني إن شئت. وإلّا لما طلبت عفوك. أنت تدّعي أنك حصرت في يدك جميع السلطات الملكية وكل حقوق المبعد هيرفورد. ألم تأمر بقتل غان ؟ وهيرفورد ألا يزال حيّاً يُرزق ؟ أولم يكن غان وفياً ؟ وهاري أميناً ؟ أولم يستحق هذا الأمير أن يكون له وريثٌ؟ أولم يترك من بعده خلفاً لائقاً ؟ أَسقِط حقوق هيرفورد، فتُلْغَ مع الوقت جميع الاتفاقيات وكل الموجبات المقدسة. وهكذا تحول دون ان يتبع جور اليوم استبداد الغد. وكذلك لا يعود لك أنت من وجود. اذ كيف تكون ملكاً حقاً ان لم يتمّ ذلك بالوراثةالشرعية ؟ اذاً، إن أعلنت هذا أمام الملأ كذّبني الواقع عندما أدّعي قول الحقيقة. أمّا إذا استوليت على لقب هيرفورد بطريقة غير قانونيّة واحتجزت المستندات المكتوبة التي تتيح له المطالبة بامتيازاته، بواسطة النواب العامّين، وإذا رفضت التبجيل الذي يجود به عليك المتزلفون ستعرّض نفسك لألف خطر وتحوّل عنك مودّتي

الخالصة، أيها الملك رتشرد.

الملك رتشرد : فكّر بالأمر مليًّا. فأنا لن أكفّ عن المطالبة بأوانيه الفضية وأرزاقه وأمواله وأراضيه.

يورك : لن أكون شاهدا على ما تفعله. الوداع اذاً، يا مليكي. ماذا يترتب على هذا التصرف من توابع ؟ لا أحد يستطيع أن يجيب على هذا السؤال المحرج. لكن سوء السلوك لا يمكنه ان يؤدي الى نتائج صالحة.

(يخرج).

الملك رتشرد : يا بوشي، إذهب حالاً الى الكونت ويلْتشاير وقل له ان يوافينا الى ايلي هاوس لنتدبّر سير هذه القضية كما يناسبنا. وغداً نتوجّه الى ايرلندا، اذ حان الوقت للرحيل الى هناك. وفي اثناء غيابنا، نجعل من عمّنا يورك حاكم انكلترا، لأنه وفيّ وقد أحبّنا كثيراً على الدوام. تعالي يا مليكتي، سنمضي غداً. وعلينا الآن أن نتسلّى، اذ لم يبق لنا ان نمكث هنا سوى وقت قصير.

(تصدح الموسيقى، ويخرج الملك والملكة وبوشي وأوميرل وكرين وباكوت).

نورثمبرلند : يا مولاي، مات لورد لنكاستر.

روس : وقد عاشت سلطته ثانية، اذ أصبح ابنه دوقاً وخَلَفَه.

ويلوبي : اجل اصبح دوقاً، لكن باللقب فقط لا بالواردات.

نورثمبرلند : سيحصل على الاثنين معاً، اذا أخذت حقوقه مجراها الطبيعي في ميزان العدالة.

روس : انا غير مرتاح البال من هذا القبيل. لانه يفضّل ان يلزم الصمت على ان يبوح بالكلام الصريح.

نورثمبرلند : لا، لا. قل ما يجول في فكرك. فلا أحد يجسر على ترديد أقوالك بقصد الايقاع بك.

ويلوبي : هل تظن ان ما تعلنه يهمّ دوق هيرفورد ؟ في حال الايجاب، تكلّم بشجاعة يا عزيزي. لاني كلّي آذان صاغية لسماع حديثك عندما يتعلّق الأمر بصيانة مصالحه.

روس : تقول مصالحه ؟ على كل حال لا استطيع عمل أي اجراء في سبيله، اذا كان له هناك من مصالح، هو الذي جُرّد من جميع املاكه.

نورثمبرلند : إن تجريد أمير مثله من جميع حقوقه كما جرى لغيره من اولاد النبلاء لهو عار لا يُحتَمل في هذا البلد المضطرب. فالملك لم يعد كما كان، لانه استسلم الى مشيئة متملّقيه. ولدى أول شكوى تُرفع اليه علينا، طبعاً بدافع الحقد، سيضايقنا بدون هوادة في عيشنا واولادنا وكل ما يخصّنا.

روس : ها قد سلب اموال المناطق عن طريق جباية الضرائب الفاحشة. فخسر مودّة رعاياه الى الأبد، وكسب

عداءهم وسخطهم، وفرض الأتاوات على النبلاء فبيّتوا له الكره الشديد والمناوءات الحاقدة.

ويلوبي : وراح كل يوم يستنبط تجاوزات جديدة ومتوجّبات وتبرّعات باهظة وما شابهها من المضايقات البغيضة. ولكن، أين يصرف كل هذه الأموال المجموعة بكل الوسائل المشبوهة ؟

نورثمبرلند : لم تستنفد حروبه اي مال، لأنه الى الآن لم يشنَّ اية حرب. وقد خضع لشتى المساومات المهينة في القضايا التي ربحها اجداده بحسن تصرفهم في الشؤون الهامّة، وبدّد في السلم اكثر بما لا يقاس ممّا بذلوه في الحروب لتأمين مصالحهم الحيوية.

روس : سيطر كونْت ويلْتشاير على مصير المملكة كلّها.

ويلوبي : وأعلن الملك إفلاسه، كأنه رجل مغامر يهضم حقوق الجميع.

نورثمبرلند : وهكذا خيّم عليه العار والدمار.

روس : ورغم ضرائبه التي لا تطاق، لم يجد وسيلة لجمع المال كي يواصل حربه في ايرلندا إلّا سلب أموال الدوق المبعد.

نورثمبرلند : وهو قريبه النبيل. تبًّا له من ملك مستهتر منحط. لكننا، يا سادة، نريد بعناد أن نواجه العاصفة الهوجاء التي تهبّ علينا وتكاد تكتسحنا، ولا نرغب في ايجاد

ملاذ يأوي اليه ويحتمي به من جنون إعصار غضبنا.
ها هي الرياح تتلاعب بنا، واذا لم نتحاشاها ونهاجمه، سنفقد أمننا وسلامتنا.

روس : نحن نرى بوضوح ما نتعرّض له من خطر الغرق الذي يداهم مركبنا المتمايل، وعلينا ان لا نقف حياله مكتوفي الأيدي.

نورثمبرلند : لا، لا، من خلال هذه الأنواء الغادرة، أرى بصيص الحياة يزداد نوراً، وان كنت لا ادري بعد متى نبلغ شاطئ الأمان.

ويلوبي : دعنا نتبيّن افكارك، كما نحن نطلعك على مخاوفنا.

روس : تكلم بثقة تامّة، يا نورثمبرلند. نحن الثلاثة نضمّ جهودنا الى مسعاك. فلا تخشَ ان تصارحنا، لأن اقوالك ليست سوى افكار قابلة النقاش، وعليك ان تعبّر لنا عما يجول في ذهنك بكل شجاعة وإقدام كي نتبناه.

نورثمبرلند : اليكم اذاً ما أنوي عمله. من « المرفأ الأبيض » وهو خليج بريطاني، بلغني نبأ مفاده ان هاري دوق هيرفورد ورينْكولْد ولورد كوبْهام الذي هرب من محتجزه دوق إيكْساتر أخيه الذي كان سابقاً رئيس اساقفة كنتربري، وسرْ توماس ارْبنْكهام وسرْ جون رامْستون وسرْ نوربري وسرْ روبرت واترْتون

وفرنسيس إكوانْت، وجميعهم قد سلّحهم جيداً دوق بريطانيا، سرعان ما يصلون الى هنا على متن ثمانية مراكب ضخمة تحمل ثلاثة آلاف رجل مسلّح يزمعون ان ينزلوا الى شواطئنا الجنوبية قريباً جداً. وربما نزلوا في هذه الأثناء الى الساحل، بانتظار أن يسافر الملك الى ايرلندا. فإذا اردنا ان ننفض عنّا نير العبودية ونستعيد نشاطنا السابق لإنقاذ وطننا المتداعي واسترداده وتخليص تاج بلدنا الذي انهكت صاحبه الإتفاقات التجارية الخسيسة ونمسح غبار التقاعس المتراكم على كواهلنا ونعيد الكرامة والوقار الى مملكتنا، علينا أن نذهب سريعاً باجمعنا الى رافنْسْبورْك. أمّا اذا كنتم لا تشعرون بالمسؤولية والشجاعة اللازمة للقيام بهذه المجابهة، إبقوا هنا واكتموا هذا السرّ، لأني مصمّم على الذهاب وحدي مهما كلّف الأمر.

روس : الى ظهور خيلنا اذاً. لا توجّه مثل هذا الحديث إلّا الى الجبناء فقط.

ويلوبي : اذا صمد جوادي، سأكون أنا أوّل الواصلين

(يخرجون).

المشهد الثاني

في قصر الملك بلندن.

(تدخل الملكة وبوشي وباكوت).

بوشي : ما لكِ حزينة جداً، يا مولاتي ؟ عندما غادرت الملك، وَعَدْتِ بأن تطردي عنك الكآبة مدى حياتك، وأن تميلي الى البهجة والمرح.

الملكة : أجل، وعدت بذلك لأطمئن الملك. لكنني لم استطع أن أفي بوعدي. على كل حال، من طبعي أن لا أدع الكآبة تسيطر عليّ، مع أن الضجر يضايقني بسبب فراق عزيزي رتشرد. ويخيّل اليّ ان مصاباً عاجلاً سيداهمني، وأنا أرتعش في أعماق قلبي لأني لا أعرف ماذا سيصيبني من شرّ. لأن الحزن يعصر فؤادي، وهو ليس متأتياً عن فراق مولاي الملك فقط.

بوشي : لحزنك، يا مولاتي، عشرون وجهاً، وهو يتّسم بالأسى بدون أن يكون كآبة حقيقية. لأن نظرة الحزن من خلال الدموع تشطر الأمور الى اجزاء كثيرة كما يفعل البلّور المتعدّد الجوانب الذي يبدو مختلف المظاهر عندما ننظر اليه من شتى زواياه هذا هو حال جلالتك عندما تفكرين بابتعادك عن

الملك، فيبدو لك الأَلم متعدد الوجوه، وهذا ما يجعلك تتنهّدين. لكن الحقيقة لا تظهر لك إلّا من خلال الوهم هكذا مشوهةً مؤلمة. اذاً هوّني عليكِ، يا مولاتي الكريمة. واذا شعرتِ بضيق في صدرك، اعلمي ان عذابك يزداد اذا لم تعتصمي بحبل الصبر والحكمة.

الملكة : يجوز ان يكون الحال كما تقول. لكن شعوراً داخلياً يحملني على الاعتقاد بان الأمر أدهى من ذلك. مهما نال مني الأسى والقنوط، ومهما كان شقائي عاتياً، وإن كنت لا أدري ماذا سينتابني بعد الآن، ارى بليّتي عظيمة وهمّي اكبر مني يكاد يحطّمني ويسحقني سحقاً.

بوشي : هذا الألم تضخّمه مخيّلتك يا سيدتي، لأنه لا يزال حديث العهد، وسيتضاءل على مرور الزمن.

الملكة : لا، لا. هو عظيم وسيظل هكذا، لأن جرحي عميق جداً. وما يضنيني اكثر هو أن ما جلبه لي ليس بأمر جوهري. وهذا الضياع الذي يثقل على صدري ليس وليد البارحة. لأني منذ زمن لا يستهان به انا اشعر سلفاً بأن كارثة ستنقضّ عليّ بدون أن أدري ما هي، ولا أن أحدّد معالمها، وكنت اعتبرها شرّاً لا بد منه ولا أعرف له اسماً.

(يدخل كرين)

كرين : حفظك الله، يـا مولاتي، هذا لقاء سعيد غير منتظر. أملي أن لا يكون الملك قد استقلّ السفينة وأبحر الى ايرلندا.

الملكة : لماذا ترجو ذلك ؟ أنا آملُ أن يكون قد رحل. لأن مسعاه يقتضي العجلة التي أرى فيها أكبر الأمل. فلماذا تتمنّى أن لا يكون قد ركب السفينة.

كرين : لأن بامكانه، وهو رجاؤنا الوحيد، ان يتراجع برجاله وأن يُحبط خطط عدوّه الذي أنزل جيوشه الى برّ بلادنا. فإن المبعد بولينبروك قد تجنّد لمناوأتـه راضياً، وقد وصل سالماً مدجّجا بالسلاح، الى مدينة رافنْسْبورك.

الملكة : وقانا الله شرّ هذا الواقع الأليم.

كرين : هذا ليس كل ما في الأمر، يا سيدتي. فان لورد نورثمبرلند وابنه الشاب هنري برسي واللـوردات روس وبومونت وويلوبي سارعوا الى الإنضمام اليه مع سائر أصدقائهم الأقوياء.

بوشي : لماذا لم تعلنوا خيانة نورثمبرلند وجماعته ؟

كرين : لقد اعلناها. ولهذا السبب كسر كونت ورْسسْتر عصاه واستقال من منصبه، ثم هرب مع جميع أفراد عائلة الملك الى مقرّ بولينبروك.

الملكة : بقولك هذا، عبّرت عن ألمـي، يا كريـن. لأن

بولينبروك هو الشخص الرهيب الذي يجب ان نتحاشاه. وقد ازداد حزني وتضاعفت كآبتي لأني أرى نفسي على شفير هاوية توشك ان تبتلعني.

بوشي : لا تيأسي، يا سيدتي.

الملكة : ومَن يبدّد عني قنوطي ؟ لا مفرّ من همومي التي تضيّق عليّ السبل. وهذا اليأس الذي يقصّر أيام عمري يدفعني ببطء نحو الموت الذي يقطع اوصال كياني بعيداً عن الأمر الذي قد يطيل نزاعي.

(يدخل يورك)

كرين : ها هوذا دوق يورك قادم الى هنا.

الملكة : وتوجّسات الحرب بادية على سحنته الهزيلة. كم أراه منهمكاً ومهموماً. بحق السماء، يا عماه، حدّثني بما من شأنه أن يسكب بعض العزاء على قلبي.

يورك : اذا بادرتك بمثل هذا الحديث أناقض تفكيري. لأن لا تعزية لنا إلا في السماء ونحن لا نزال على الأرض حيث تتراكم الهموم والشدائد والأحزان وتجثم فوق صدورنا. لقد ذهب زوجك بعيداً لينقذ مملكته. بينما غيره يأتي الى هنا ليسلبه عرشه. ولقد تركني هنا لأرعى شؤونه أنا الذي أضعفتني الشيخوخة، ولم تدعني قادراً على قضاء أموري الخاصة. وأرى

الوقت الحرج مهرولاً نحونا بكل مشاكله ليفضح خبث نوايا المتزلّفين اليه.

(يدخل أحد الخدم)

الخادم : يا مولاي، مضى ابنك قبل وصولي الى هنا.

يورك : ذهب ... حسناً فعل. أرجو أن تنقضي المسائل كما تشاء الظروف المؤاتية. ها قد تفرّق النبلاء، وأصاب الناس الهلع، وبتُّ أنا اخاف ان يعلنوا العصيان وينضمّوا الى هيرفورد ويساندوه. أيها الماكر، اذهب الى بلاشي حيث تمكث أختي كلوسسْتر، وقل لها أن ترسل لي حالاً ألف ليرة. خذ خاتمي كعلامة من قبلي.

الخادم : يا مولاي، نسيت أن أقول لسيادتك أنني اليوم وأنا عائد مررت من هناك. سأخبرك بما رأيت، وإن كان ذلك يزعجك.

يورك : ماذا رأيت، يا غبي ؟

الخادم : قبل أن آتي بنحو ساعة من الزمن، ماتت الدوقة.

يورك : رحمتك ألّهمَّ. ما هذه الموجة من المصائب التي انهالت على رؤوسنا بغتة في هذه الأرض التعيسة. لم أعد أعرف ماذا أفعل... أرجو من الله، خشية أن أكون قد مهّدت أية خيانة، أن يكون الملك قد قطع رأسي ورأس أخي. هل أرسل أحد سعاة البريد الى

ايرلندا ؟ كيف السبيل الى إيجاد المال للإنفاق على هذه الحرب ؟ تعالي، يا أختي... ويا ابنة اخي... أرجوكما ان تسامحاني... (للخادم) إذهب، يا صاحبي، الى منزلي واصطحب بعض العربات الصغيرة واجلب كل ما تجده هناك من اسلحة. (يخرج الخادم). (الى اللوردات) يا سادة، هل تريدون ان تذهبوا لتجمعوا رجالكم ؟ انا لم أعد أعرف كيف اتصرف ولا بأية وسيلة أرتّب الأمور المضعضعة التي تنهمر على رأسي بدون اي استعداد من قبلي لمواجهتها والتغلّب عليها. فكلا الشخصين من أقربائي : أحدهما هو مليكي الذي يحتّم عليّ واجبي ان أدافع عنه، والآخر ابن أخي الذي ظلمه هذا الملك، ويدعوني ضميري ونسبي الى السعي للتعويض عليه. مع ذلك عليّ ان أتخذ قراراً لصالح هذا أو ذاك. تعالي يا ابنة أخي لأودِعَك في مكان حريز أمين... أمّا أنت فهيّا اذهبْ واجمعْ رجالك والحق بي عاجلاً الى قصر برْكْلي. عليّ ايضاً أن أمضي الى « بلاشي ». لكني لا أجد متسعاً من الوقت لذلك. فكل الأمور قد انقلبت رأساً على عقب ودبّت الفوضى في جميع النواحي.

(يخرج يورك ومعه الملكة).

بوشي : الفرصة ملائمة لارسال الانباء الى ايرلندا. لكن، لا خبر يرد الينا من هناك. لا بد لنا من جمع قوّاتٍ توازي رجال اعدائنا، وهذا متعذّر نظراً الى وضعنا الحالي الحرج.

كرين : من جهة اخرى، يضطرنا ولاؤنا للملك الى ان نكره ونناوئ من لا يحبّون جلالته.

باكوت : اعني الشعب الخسيس الذي يكمن حبه في كيس النقود حين يثور حقد صاحبه على من يفرغه من محتواه.

بوشي : وهكذا أظن أن الملك يهرول نحو مصير مجهول سيندم عليه حتماً.

باكوت : واذا كان الشعب يتحكم بمجرى الأحداث فمصيرنا نحن أيضاً أسوأ ما يكون، لأننا كلنا مخلصون للملك.

كرين : سأمضي أنا وأحتمي في قصر بريستول حيث يمكث الآن كونْت ويلْبي.

بوشي : وأنا ذاهب معك. لأن أسهل عمل عدائي يواجهنا به الشعب الناقم علينا هو أن يقطعنا إرباً إرباً. تبّاً له من ناكر الجميل. ألا تريد أن ترافقنا ؟

باكوت : كلّا. أنا ذاهب الى ايرلندا لأوافي صاحب الجلالة. الوداع. وإذا جرى ما أتوقعه سنفترق نحن الثلاثة هنا ولن يجتمع شملنا ابداً بعد الآن.

بوشي : كل الأمور مرهونة بمحاولة يورك لدحر بولينبروك.
كرين : مسكين هذا الدوق. لم يعد لسعيه من فائدة. فكأنه يحاول أن يبتلع ماء البحر. إذْ لقاءَ كل مقاتل الى جانبه، هناك ألف جبان من الهاربين المنفضّين من حوله يناوئونه.
بوشي : الوداع، مرة ثانية وأخيرة، بل الى الأبد.
كرين : ربما تلاقينا ذات يوم.
باكوت : اخشى أن لا نلتقي مطلقاً.

(يخرجون).

المشهد الثالث

في جبال كلوسسْترشاير.

(يدخل بولينبروك ونورثمبرلند ومعهما بعض الجنود).

بولينبروك : ما هي المسافة الفاصلة بين هذا المكان وبرْكْلي ؟
نورثمبرلند : انا غريب عن منطقة كلوسسْتر، أيها اللورد النبيل، وهذه التلال العالية والدروب الوعرة تعيق السير وتجعله طويلاً مضنياً. مع ذلك اشعر بأن حلو حديثك قد قلّل مشقة الطريق. لكني أقدّر أن المسافة بين رافنْسبورك وكوتْسوْلْد كانت تبدو أصعب في

نظر روس وويلوبي لولا صحْبتك المؤنسة، وقد أنْهك قواهما هذا السفر المرهق البعيد. غير ان ما هوّن عليهما هذا العناء هو كلامك الطليّ الذي جدّد فيهما روح النشاط والسرور كما هو حالي أنا أيضاً في هذه الساعة. ونحن نقدّر أيضاً همتك وبهجة لقائك لأن رقة حديثك تبعث الأمل في النفوس والراحة في الأبدان مهما كانت منهوكة متعبة. وهكذا فقد قصّرت الطريق على هؤلاء اللوردات المرهقين وأحييت أملهم، وهذا تماما لسان حالي كذلك.

بولينبروك : ان صحبتي هي أقل شأناً من حلو حديثكم أنتم. لكن من القادم الى هنا؟

(يدخل هاري برسي)

نورثمبرلند : هو ابني الشاب هاري برسي القادم من قبل أخي ورْسسْتر الذي لا أعرف أين مقره الحالي. كيف حال عمّك، يا هاري ؟

برسي : كنت أترقب أن أطّلع منك على أخباره.

نورثمبرلند : ماذا تقول ؟ أوليس الآن بصحبة الملكة ؟

برسي : كلا، يا مولاي الكريم. لقد غادر البلاط ساخطاً وكسر عصا المارشالية وشتّت جماعة الملك.

نورثمبرلند : لأي سبب ؟ ألم يكن على أتم الاستعداد حين كلّمته

آخر مرة ؟

برسي : أنت تعتبره خائنا، يا صاحب السيادة. بينما هو قد ذهب الى رافنْسْبورْك ليقدّم خدماته الى دوق هيرفورد. وأرسل لي شخصاً من قبل بِرْكْلي ليعرف عدد الرجال الذين جنّدهم دوق يورك، وأمرني أن أتوجّه بالتالي الى رافنْسْبورْك.

نورثمبرلند : هل نسيت دوق هيرفورد، يا ولدي ؟

برسي : لا، لا، يا مولاي الكريم. وكيف استطيع أن أنسى ما لم أتذكّره أبداً، وأنا لم أعرفه بتاتاً في حياتي.

نورثمبرلند : تعلّم اذاً أن تعرفه من الآن وصاعداً. ها هوذا الدوق المذكور.

برسي (لبولينبروك) : سيدي الفاضل، يسرّني أن أقدّم لك خدماتي كما هي، أنا الفتى الليّن العود القليل الخبرة، راجياً ان أنضج وأرتقي مع تقدّمي في السنّ الى المستوى اللائق بمحيطي.

بولينبروك : اشكرك، يا برسي الظريف. يسرّني أن أكون على صلة بأمثالك ذوي اللياقة والكياسة من الاصحاب المخلصين. أرجو أن يكون عطفي خير مكافأة على أمانتك وولائك. هذا عهدي لك أحافظ عليه مدى العمر، وهذه يدي تصافحك لترسيخ صداقتنا.

(يصافح يد برسي).

نورثمبرلند : ما هي المسافة التي تفصلنا عن برْكْلي ؟ وما هو عدد الرجال المحاربين الذين يساندون صاحبنا القديم يورك ؟

برسي : هناك قرب مجموعة الأشجار العالية يقوم القصر. وعدد المدافعين عنه يناهز ثلاثمئة رجل مسلّح، على ما بلغني. فيه يمكث لوردات يورك وبركلي وسيمور. ولا يوجد هناك سواهم من مشاهير الشخصيات المرموقة.

(يدخل روس وويلوبي).

نورثمبرلند : ها هما لوردا روس وويلوبي آتيان نحونا. ويبدو الارهاق على جواديهما، ومحياهما محمرّان من شدة السرعة.

بولينبروك : أهلاً بكما. ألاحظ ان مودّتكما وثيقة بهذا الخائن المنفيّ. أنا لا حيلة لي تجاه عرفان جميل لا يزال هزيلاً من قبله، وأترقّب أن يشتد ساعدي لأقابل بالإحترام ما يبديه من تودّد وجهود في سبيلنا.

روس : مجرّد وجودك ينعش آمالنا، أيها اللورد الفاضل.

بولينبروك : شكري هذا هو كل ما استطيع فعله الآن، ونحن مقصّرون بواجباتنا، الى أن تزداد امكانياتنا ونصبح قادرين على ايفاء ما لأصحابنا علينا من أفضال... لكن من القادم الى هنا ؟

نورثمبرلند : هذا مولاي برْكْلي، إن لم أكن مخطئاً.

بركلي : مولاي هيرفورد. هذه رسالتي اليك.

بولينبروك : انا لا ألبّي إلّا من يناديني لنكاستر. فلقد جئت الى انكلترا لأحصل على هذا اللقب الذي أود أن تتلفظ به شفاهكم لأردّ على أقوالكم.

بركلي : لا تغلط، يا ولدي. أنا لا أريد أن أحرمك أيّاً من ألقابك النبيلة. أنا آتٍ إليك، يا مولاي لورد... كما تشاء، من قبل الوصي على العرش دوق يورك. ماذا حرا بك الى انتهاز فرصة غياب صاحب الجلالة لتثير هذه الحرب الداخلية وتعكّر سلام وطننا ؟

(يدخل يورك ومرافقوه).

بولينبروك : لست بحاجة إلى إبلاغ جوابي بواسطتك، فها هوذا صاحب السيادة بشحمه ولحمه... عمي النبيل.

(يركع).

يورك : ارجو ان تدع قلبك يلين قليلاً بدل ان تطوي هكذا ركبتك كدليل احترام يمليه عليك مكرك ودهاؤك.

بولينبروك : عماه الكريم، ما هذا الكلام ؟

يورك : انا لا آبه بألقابك ونداءاتك المتكرّرة. لا تدعُني كريماً ولا عمك. أنا لست عمّ خائن مثلك وكلمة كريم على شفتيك تصبح مشوّهة مشبوهة. لماذا وطأتْ قدماك أرض انكلترا، وأنت خائن مبعد عنها ؟

لماذا تجاسرت وقطعت كذا عدد من الأميال على أرض هذا الوطن المسالم، فأرعدت فرائص الناس الآمنين في العديد من القرى بما تجرّه وراءك من أدوات الحرب والاسلحة الرهيبة ؟ هل اتيت الى هنا لأن الملك الشرعي سيّد البلاد الأصيل غائب عنها الآن ؟ إعلم، أيها الولد المهووس، ان الملك، وإن غاب، فسلطته لا تزال حاضرة في قلبي الوفيّ. لو كنت لا أزال في عنفوان شبابي الصاخب كما كنت حين أنقذنا أنا ووالدك الشجاع غان بطل الحرب الغيور، هذا الوطن من أيدي ألوف الفرنسيين المعتدين لكنت شاهدت بأمّ عينك كيف استطاع هذا الساعد الذي كبّلته الشيخوخة العاجزة أن يعاقبك على جهلك المعيب وعنجهيّتك الساذجة وعلى أغلاطك وحماقاتك التي لا تُحصى.

بولينبروك : عمّي العزيز، أرجوك أن تبيّن لي ما هي غلطتي، وأين تكمن حماقتي ؟

يورك : خطأك الجسيم يقوم على تمرّدك الذي يُعتبر خيانة عظمى بغيضة. انت مبعد، وها أنك قبل انقضاء مدة نفيك تجابه مليكك والسلاح في يدك.

بولينبروك : المبعد فيما مضى كان هيرفورد. أمّا اليوم فأنا أعود بإسم لنْكاسْتر. يا عمي النبيل، أستحلف سماحتك

أن تتفحّص ما لحق بي من الغبن المغرض القصود.
أنت بمثابة والدي. لأني أرى في شخصك صورة
أبي المسنّ جون دي غان. اذاً أتوجّه إليك كأنك
والدي لأسألك هل تقبل بأن أظل منفيّاً تائهاً مشرّداً،
وقد سلبني حقوقي وألْقابي الشرعية، جماعة من
المتسلّطين الإنتهازيّين. لماذا أنا وُلدت في هذه
الأسرة ؟ اذا كان الملك ابن عمي هو ملك انكلترا،
فلا بدّ من الاعتراف بأني دوق لنكاستر. أنت لك
ابن يُدعى أوميرل وهو نسيبي النبيل. ولو كنت متّ
أنت قبله وتراكمت المصائب عليه هكذا لكان وجد
في عمه جون دي غان أباً ليطرد كل من ناوأه
ونغّص عليه حياته. هنا يمانع البعض في الإعتراف
بما يحقّ لي من لقب مع أن مستنداتي تثبت حقي
هذا بكل وضوح. ولقد صودرت مني جميع
ممتلكات والدي وبيعت ليجري التصرف بثمنها على
شكل إجرامي لم يسبق له مثيل. فماذا تريد أن
أفعل ؟ أنا أحد رعايا هذه المملكة وأطالب بتطبيق
القانون بالنسبة الى ما يعود لي من حقوق. لكنني
حرمت من توكيل نائب عني. لذا اضطررت الى
المطالبة شخصياً بحقوقي الشرعية في ما يخصني من
إرث آبائي وأجدادي.

نورثمبرلند : معاملة هذا الدوق النبيل على هذا النحو لا تستند الى

أي منطق سليم. فهو مظلوم بكل معنى الكلمة.

روس : عليك، يا صاحب السيادة، أن تنصفه وترفع عنه الحيف.

ويلوبي : أجل، هناك متسلّطون مستبدّون وسّعوا دائرة أملاكهم على حساب هذا المغبون.

يورك : يا لوردات انكلترا، أصغوا اليّ. لقد لمست الاستبداد الذي أصاب ابن أخي. وحاولت بكل جهودي أن أحصل له على تعويض. لكن العمل على احقاق الحق بقوّة السلاح والعنف لتقويم ما اعوجّ والسعي الى التعويض عن الظلم وانصاف المظلوم، لا أجده منطقيّاً ولا عادلاً. فأنتم الذين تساندونه في مطلبه المحقّ هذا، تقومون بتمرد وتُعتبرون هكذا كلّكم بسببه مشاغبين.

نورثمبرلند : لقد أقسم هذا الدوق الكريم بأنه أتى الى هنا للمطالبة بممتلكاته. لذا أقسمنا كلنا بدورنا على مساعدته في استرداد حقوقه الشرعية. ومن يحنث بهذا القسم لن يذوق طعم راحة الضمير يوماً.

يورك : حسناً. أنا أرى مسبقاً نتيجة لجوئكم الى السلاح. وإن كنت لا أقوى على منعكم عن هذا الإجراء المنحرف، أعترف بكل صراحة بأن مردّ ذلك لضعفي وشحّ مواردي التي أصبحت غير كافية.

لكني لو كنت قادراً على ذلكَ لما ترددت لحظة في بذل حياتي لتحقيقه. وكنت أوقفتكم جميعاً عند حدّكم وأجبرتكم على الخضوع لمشيئة الملك. وبما أني بتّ عاجزاً عن تنفيذ ما أريد ؟ إعلموا أني سأظل حياديّاً في هذه القضية العادلة. لذا اودّعكم الآن، إلّا اذا شئتم ان تدخلوا القصر معي، وترتاحوا هذه الليلة هنا.

بولينبروك : نقبل دعوتك، يا عماه، بكل طيبة خاطر. وبالمقابل نرجو من سيادتك أن تأتي لزيارة قصر بريستول الذي يحتلّه على ما يقال، بوشي وباكوت واعوانهما، وكلهم كالحشرات، يمتصّون دماء هذا الشعب الوادع، وقد أقسمت أن أسحقهم وأبيدهم.

يورك : قد أذهب معكم... لكنني أريد قبلاً أن أفكّر مليّاً في الأمر. لأني اربأ بأن أخالف قوانين بلادي. أنتم لستم أصحابي ولا أعدائي. فأهلا بكم وسهلا. وبما أن المسائل القائمة حالياً أضحت غير قابلة المعالجة، تروني لم أعد أبالي بها إذْ أضحى حلّها وتعقيدها لديّ سواء.

(يخرجون).

المشهد الرابع

ضمن معسكر في بلاد الغال

(يدخل سالزبري وأحد الضبّاط).

الضابط : مولاي سالزبري، ها قد إنتظرنا عشرة أيام. وبكل صعوبة نحن نصبّر أتباعنا. مع ذلك لم نحصل على أية أنباء من قبل الملك. بالنتيجة لا يسعنا إلا أن نذهب كلٌّ منّا في سبيله. فالوداع.

سالزبري : انتظر يوماً آخر، أيها العزيز الوفيّ. فالملك يضع فيك كل ثقته الغالية.

الضابط : يعتقد البعض أن الملك قد تُوفيّ. لذا لم يعد بإمكاننا أن ننتظر أكثر مما فعلنا، وقد ذبلت في بلدنا أكاليل الغار جميعها. فالأجرام السماوية ترهب النجوم الثابتة في كبد السماء. وكذلك القمر الشاحب يرسل أشعة ضعيفة الى الأرض، كما أن الأنبياء يتوقّعون تغييرات رهيبة في هذه الأجواء المضطربة. لقد بدا الحزن على محيا الأغنياء المترفين، وسيطر الفرح على وجوه الأشقياء البائسين الذين راحوا يرقصون طرباً. بعضهم يخاف أن يفقد ثروته والبعض الآخر يأمل بالاستيلاء على الغنائم في فوضى الحرب المدمّرة. وجميع هذه الإشارات تدل على موت الملوك

وسقوطهم، بينما يتشتّت المواطنون ويهربون مقتنعين حسب الشائعات بأن ملكهم رتشرد قد مات فعلاً.

(يخرج).

سالزبري : آه، يا رتشرد، أرى بكل أسف ان مجدك قد زال، وكنجم مذنّب هوى على أرض ملعونة، غابت شمسك وسط البكاء والنحيب في أقاصي الغرب معلنة هبوب أعنف العواصف التي تزرع الشقاء والفوضى في كل مكان. وقد هرب اصحابك للالتحاق بأعدائك، وكل ما في الكون يتسارع لجرف مصيرك المظلم الى أعماق هاوية العدم.

(يخرج).

الفصل الثالث

المشهد الاول

وسط معسكر بولينبروك في بريستول.

(يدخل بولينبروك ويورك ونورثمبرلند وبرسي وويلوبي وروس يتبعهم ضبّاط يأتون ببوشي وكرين كأسرى).

بولينبروك : دعوا هؤلاء الرجال يتقدّمون. يا بوشي ويا كرين، لا أريد أن أسبّب القلق لنفسيكما اللتين ستفارقان بعد هنيهة جسديكما، عندما أفضح سلوككما المشين الذي لا يمتّ الى صفات البشر بأية صلة انسانية. على كل حال، لغسل يدي من دمكما القاتم، هنا امام الجميع، سأعرض بعض موجبات موتكما. لقد خدعتما ملكاً كريماً عادلاً يمتاز باخلاقه الحميدة وصدره الرحب، ولأجل غاياتكما السافلة خلقتما حوله جواً مريباً أفضى بينه وبين الملكة الى الطلاق

البغيض. وهكذا أقضّ سلوككما المعيب مضجع الملك وشوّه فضائل الملكة وأسلْتما من عينيها فيضاً من دموع الحزن والكدر. ولم تعفّ دناءتكما عن إفساد العلاقات الحميمة بيني وبين نسيبي الملك بعد أن كان الودّ رائدنا طوال حياتنا الماضية، وجعلتماني أطأطئ رأسي حيال ما نشرتماه حول شخصي من مذمّة واهانة، وقد كانت سمعتي كإنكليزي عريق، حتى في البلاد الاجنبية البعيدة، تفوح بعبير الشهامة والمروءة. وجعلتم طعم خبزي مرّاً كالعلقم، وانتما بمكركما وخداعكما عشتما كأميرَيْن مرفّهَيْن، بينما جعلتماني أحيا كأني في غابة تتناهش داخلها الوحوش الضارية من انصاركما المنحطين على شاكلتكما. وهكذا سوّدتم صفحتي وعكّرتم صفو هنائي وجرّدتموني من كرامتي بين الناس ومن احترامي بين افراد اسرتي النبيلة. أؤكد لكما أن أعمالكما هذه مجتمعة تستوجب لكما حتماً عقاباً أقلّه الموت الزؤام. هيا خذوهما مكتوفي الأيدي الى تنفيذ حكم الإعدام فيهما.

بوشي : هذا الاعدام أجدى في نظري مما صنعه بولينبروك لإنكلترا. الوداع، يا سادتي.

كرين : ما يعزّيني فعلاً هو أننا كضحايا بغيك نستحقّ أن

نصعد رأساً الى السماء، بينما أنت لا شك في أن ظلمك العاتي سيوصلك فوراً الى عذابات نار جهنّم.

بولينبروك : يا مولاي لورد نورثمبرلند، إسهر على تنفيذ الحكم فيهما بأسرع ما يمكن. (يخرج نورثمبرلند وسواه مع الأسرى). يا عمّاه، يُقال أن الملكة موجودة عندك. فبحق السماء، أرجو أن تعاملها بلطف واحترام. قل لها أني أهديها أطيب تمنّياتي وأصدق تقديري وأصفى مودتي.

يورك : لقد أرسلت اليها تحريراً يضمّ كل ما نتمنّى لها من عواطف مخلصة.

بولينبروك : شكراً، يا عمي. تعالوا الآن نجدّ في السير، أيها اللوردات. هيّا بنا نحارب كلانْداوْر نصير الملك رتشرد وأعوانه. أمامنا بعض الجهد نبذله لنصل الى الغاية المنشودة ثم نستريح.

المشهد الثاني

ساحل بلاد وايلس حيث يظهر أحد القصور في الأفق.

(تصدح الموسيقى مع قرع الطبول ونفخ الأبواق. يدخل
الملك رتشرد وأسقف كارليل وأوميرل وفرقة جنود.)

الملك رتشرد : هل هذا الصرح الـذي نراه امامنـا هو قصر بارْكْلولي ؟

اوميرل : أجل، يا مولاي... كيف رأيت هذه البلاد، يا صاحب الجلالة، بعد أن اتعبتك أمواج البحر المتلاطمة ؟

الملك رتشرد : كيف لا اقدّرها وأحبها ؟ وقد كادت عيني تدمع من شدة الفرح لأني لا أزال أجد نفسي في رحاب مملكتي ؟... يا لهذه الأرض الطيبة التي اودّ أن أُحْييها وأُعيد اليها الازدهار، بعد أن مزّقها المتمردون الاشرار وداسوها بسنابك خيولهم. وهي كالأم الحنون التي فارقت ولدها الوحيد زمناً طويلاً ثم التقته، فاختلطت بسماتها العريضة بدموع فرحها الفجائي. هكذا أنا أيضاً ابتسم وأبكي وأحيّيك يا أرضي العزيزة وأباركك بيديّ الملكيّتَيْن. لا ترحمي اعداء ملككِ ، يا أرضي الحبيبة، وامنعي عنهم كل عطف لأنهمَ خونة منحطّين. كوني كالعناكب

وامتصّي دماءهم، وكالضفادع الزاحفة على دروب الجاحدين خدّشي أرجلهم لأنهم لصوص مغتصبين. لا تُنبتي لأخصامي سوى الاشواك، وعندما ينوون ان يقطفوا زهور جنائنك أرجوك أن تضعي أفاعـي لحراستها كي تلدغهم بألسنتها السامّة المميتة، ما داموا يناوئون ملكهم. لا تضحكوا عندما ألفظ هذا الكلام، يا سادتي اللوردات، وتعتبروه محض هراء. ان لهذه الأرض مبادئ وفية وأحجاراً تتحوّل الى جنود مسلّحين للدفاع عن ملكها حين يوشك سيّدها ان يهوي تحت ضربات المتمرّدين الاشرار العتاة.

اسقف كارليل: لا تخشَ أي اذى، يا مولاي. فالسلطة التي جعلتك ملكاً، قادرة على توطيد عرشك، رغم كل ما يحاك حولك من مؤامرات دنيئة. فالوسائل التي تلجأ اليها السماء، يتحتّم علينا أن ندعمها وان لا نهملها، وإلّا، حين تشاء السماء ونحن لا نريد، نرفض عون العلاء، وكذلك رعاية العناية الالهية وغوثها وسلامها.

اوميرل : يقصد ان يقول، يـا مولاي، ان ميوعتنا تؤذينا، بينما بولينبروك، بسبب خضوعنا وتخاذلنا، تنمو قوّته وموارده وصداقاته وتزداد فعاليتها للسيطرة علـى مقدّراتنا.

الملك رتشرد : يا ابن عمي القانط، ألّا تدري أن عين السماء

الساهرة تتوارى خلف الكرة الارضية وتضيء العالم السفلي. بينما ينتشر اللصوص وقطّاع الطرق في كل مكان، يسفكون الدماء البريئة وهم غير منظورين ويعيشون فساداً وفتكاً. لكن، حالما يخرجون من وراء هذه الكرة الارضية، يسطع الكوكب في الشرق ومن أعالي فلكه حيث يشرف على أشجار الصنوبر، يُرسل اشعته ويكشف كل بؤر الإجرام ويفضح القتلة والخونة والمفسدين المضلّلين. حينئذ اذ لا يستر جنح ظلام الليل قبائحهم الدنيئة، يظهرون عراة ويرتجفون لهول موبقاتهم. هكذا عندما يتخبّط السارق الجاني بولينبروك في عتمة الليل، بينما نكون نحن تائهين في رحاب الأرض، سيراني جالساً على العرش في شرقي انا، وتبرز خيانته النكراء من خلال عينيه الزائغتين اللتين لا تقويان على التحديق في وهج ضوء النهار، وقد افزعته وارجفته بشاعة جرائمه الفظيعة. كل مياه البحر الهائج الصاخب لن تغسل ما يلطّخ جبينه من وصمة عار خيانته. كما أنها لن تزيل آثار الزيت الذي مُسحتْ به جبهتي انا مليكه الشرعي. وجميع محاولات البشر لن تستطيع اقالتي أنا سيّده المميَّز وقد توليت الحكم شرعاً على هذه الأرض الخيّرة. لكل واحد من الرجال الذين قادهم بولينبروك وحرّضهم على إشهار السيوف الفولاذية

في وجهي لتحطيم تاجي الذهبي ستبوء حتماً بالفشل لأن الله سينصرني انا الملك رتشرد، ويرسل ملائكته الأبرار لحمايتي. ومتى حاربتْ هذه الملائكة، لا بد للرجال من ان يخرّوا صرعى لأن عدل السماء يرعى دوماً مصالح بني البشر الاتقياء.

(يدخل سالزبري).

الملك رتشرد : (يتابع كلامه) : اهلاً بك، يا مولاي اللورد الوقور. أين تتجمّع قواتك ؟

سالزبري : يا مولاي، هي على بعد مرمى هذا الساعد الضعيف. القنوط يربط اللسان ولا يسمح إلا بلفظ كلام التخاذل. فإن تأخر يوماً واحداً أخشى أن يغلّف الضباب كل أيام الصفاء في هذه الديار الآمنة. تذكّر نهار أمس، وارجع بالذاكرة قليلاً الى الوراء، فيزيح اثنا عشر مقاتل مناوئ من دربك كل الأصدقاء ومظاهر السعادة والثروة والسلطة. لأن جميع أهالي منطقة وايْلس، عند انتشار شائعة وفاتك قد تحوّلوا نحو بولينبروك، أو تشتتوا وهربوا.

اوميرل : لا تبدّد أمالك، يا مليكي. لماذا شحب لونك هكذا ؟

الملك رتشرد : منذ هنيهة، كان دم عشرين الف رجل يورّد خدودي وينير وجهي. لكنهم كلهم زالوا الآن من الوجود.

فإلى ان يعود الدم الى وجنتيّ بمقدار كافٍ، تريد أن لا ينتابني الوجوم وشحوب الموت. كل الذين يريدون النجاة لأنفسهم يولّون الإدبار بعيداً عني. لأن الزمان الحاضر قد اضعف كبريائي وامكاناتي.

اومیرل : تشجّع، يا مليكي، وتذكر من أنت ثم لا تنسَ مقامك الرفيع.

الملك رتشرد : لقد نسيت. أوَلستُ أنا الملك ؟ استيقظ أيها الملك المتواني، وانهض من سباتك العميق. أوَلَا يساوي لقب العاهل اربعين الف رجل ؟ تسلّح وتأهب يا شخصي القدير. فان هزيلاً من رعاياي العديدين يهاجم أمجادك الساطعة. أولا أزال رفيع المقام ؟ عليّ اذاً ان لا أنظر الى اسفل لأني سيّد كل هذه الأرض الواسعة، وعليّ أن ارفع افكاري الى العلاء. أنا أعلم أن لدى عمي يورك قوّات كافية لنجاح جهودي ومساعيّ. لكن من الآتي الى هنا في هذه الساعة ؟

(يدخل إسكروب)

إسْكروب : لتمنح السماء مولاي الملك كل السرور والهناء اللذين لا يستطيع صوتي، وقد بُحّ من الألم، أن يؤمنهما له.

الملك رتشرد : ها ان اذني صاغية وقلبي منفتح. وانحس ما يمكنك

أن تعلمني به هو الخسارة الدنـوية. فهل ضاع عرشي ؟ قل لي الحقيقة. هذا كان همّي الأكبر في الماضي. ماذا يخسر الانسان بعد أن يفقد مقوّمات وجوده ؟ هل يدّعي بولينبروك انه كبير القـدر نظيري ؟ لن يصبح أبداً أعظم مني. إن كان يخدم الله فأنا أيضاً أخدمه وأخدم من يعبده. وإن أقدم رعاياي على عصياني، فلـن أستطيع مقاومتهـم، ويكونون قد انكروا إيمانهم بخالقهم ونقضوا ثقتهم بي. تبّاً لهم، إن جحودهم كارثة تجرّ وراءها الدمار والهلاك. والأشنع من هذا هو الموت الزؤام الذي ينقضّ علينا ويسحقنا في خاتمة المطاف.

إسكروب : يسرني ان اعلم أنك صامد صابر ومستعد لتلقّي هذه الصدمة الهائلة الشبيهة بعاصفة هوجاء تجتاح ضفاف الأنهر، كما لو كان الكون برمّته سينوء تحت وقر مياهها المتدفّقة الجارفة. هكذا ينهال علينا حقد بولينبروك، ويهاجم هذه الأرض وقد أرهبتها سيوف اعوانـه وبربريّتهـم الوحشيـة كسيوفهـم الفولاذيـة وجماجمهم القاتمة الصلعاء المروّعة. بينما اصوات الفتيان ترتجف لصيحات البنات، وقد ارتدوا دروعاً ثقيلة لمواجهة جيشك، بعد أن علّمهم رهبانك أن يستهتروا بهيبة صولجانك، حتى أن النساء هجرن

مغازلهن وأشهرن الفؤوس الصدئة في وجه رجالك، والجميع شبّاناً وشيوخاً يتمردون وكل شيء يسير بشكل اسوأ مما يسعني أن أصفه لك.

الملك رتشرد : أنت لا تجيد سرد هذه المشاكل. أين كونْت ويلْتْشاير ؟ أين باكوت ؟ ماذا حلّ ببوشي ؟ أين كرين ؟ كيف تركوا هذا العدو الخطر يجتاز أراضي دولتي هو ورجاله في مسيرة متمهّلة كهذه. اذا انتصرنا عليهم سيدفعون ثمن جسارتهم بقطع رؤوسهم. انا أراهن بأنهم عقدوا صلحاً لصالح بولينبروك.

إسكروب : فعلاً يا مولاي. لقد عقدوا صلحاً معه.

الملك رتشرد : تبّاً لهم من أفاعٍ سامّة، هؤلاء الخونة الذين لا يستحقّون أية شفقة. تبّاً لهم من وحوش ضارية على أهبة ان يزحفوا كالحشرات الحقيرة أمام أول قادم يغريهم بأية وسيلة. حقّاً أنا أشعر الآن بأنهم كالحيّات الرقطاء يلدغون صدري ويمتصّون دم قلبي. هم ثلاثة خونة كيهوذا، وكل واحد منهم اشنع ثلاثة أضعاف من هذا اللعين الذي باع معلّمه. لقد عقدوا صلحاً مع الخائن. فأنا أسأل الجحيم ان تنتقم لي منهم وتُنزل أشد العقوبات والعذابات بنفوسهم الخسيسة قصاص جريمتهم النكراء.

إسكروب : في هذه الظروف العصيبة، أرى أن أرقّ عطف يتحوّل الى كره مرير مميت. ألَا صبُّوا لعناتكم على أرواحهم النجسة. أجل، لقد عقدوا الصلح ومدّوا أعناقهم للقطع بجبن وخنوع بدلاً من أن يمدّوا ايديهم للمصافحة الودية. وإن استحقوا هذه اللعنات تحتّم عليهم أن يموتوا بحقارة، وأن يُكفّنوا بالعار ويُوارَوْا في هوة سحيقة من الذل.

اوميرل : ماذا تقول؟ هل مات بوشي وكرين وكونْت ويلْتشايْر.

إسكروب : أجل، أجل. قُطعت رؤوس هؤلاء الثلاثة في مدينة بريستول.

اوميرل : اين اذاً ابي وقوّاته؟

الملك رتشرد : هذا لا يهمّ... لا تتحدثوا بعد الآن عن أي أمل، بل تحدثوا عن قبور تعجّ بالديدان والحشرات الحقيرة. علينا أن نتّخذ من التراب ورقاً ونكتب بقطرات المطر قصة آلامنا على سطح الأرض. هيّا نجد كتّاب وصايا لنملي عليهم رغباتنا الأخيرة. لكن لا. إذ لم يبق لنا في هذا العالم سوى نفوسنا المعذّبة، فأرزاقنا وأجسادنا جميعها اضحت ملك بولينبروك. ولم يعد أمامنا في هذه الدنيا سوى الموت، ورقعة صغيرة من الأرض لتضمّ عظامنا البالية. تعالوا نجلس

على العشب اليابس ونسرد قصة وفاة الملوك الحزينة : فبعضهم قد طُردوا من قصورهم وبعضهم ماتوا في الحرب وغيرهم سيطر عليهم شبح من سلبوهم عروشهم وغيرهم ماتوا بالسمّ على يد زوجاتهم، وآخرون قطعت أعناقهم وهم نيام. لأن المنيّة تعشعش في تيجانهم المضطربة وتحت عروشهم المهزوزة التي تزدري بعظمتهم الباطلة وبجلال ابّهتهم الخدّاعة رغم كل تزلّف المتملّقين الانتهازيّين المراوغين المستفيدين من غباء صاحب السلطة اذ يخدمون مصالحه ظاهراً وهم لا يبغون إلا منافعهم الشخصية باطناً، ولا يلبثون ان يغدروا به حالما يُصاب بالتخمة جشعهم الذي لا يدرك الشبع. ثم يشيّعونه بالأسف مودّعين ليستقبلوا خلفه بالتزلف والرياء ويعيدوا الكرّة معه، ضاربين عرض الحائط بكل معالم الاحترام والتقاليد والمراسم واللياقات التي يكيلونها نفاقاً بلا حساب، لأن غايتهم تقتضي ذلك في بدء كل عهد ليصلوا الى مِسْك الختام كما فعلوا بسواه. وعلى الرجل الحكيم البصير ان يتخذ لنفسه من مراوغتهم موعظة بليغة وعبرة واقعية مما يضمرونه له من الغدر والخيانة. فأنا مثل غيري من البشر أعيش بالخبز واشعر بالحاجة وأحسّ بالألم وافتقر الى الاصدقاء المخلصين. ولكن عندما اواجه ما لقيته من

مصير كئيب، كيف يجوز لكم ان تعتبروني ملكاً ؟

اسقف كارليل: يا مولاي، ان الرجل الحكيم لا ينهار امام شرور الحاضر، بل يقاومها بصبر حتى يتسنى له ان يتغلّب عليها. لأن الخوف يشلّ العزيمة، وفي الخوف من العدو تكمن مساعدة هذا العدو على الفوز والتغلّب على ضعفنا. فعلينا ان لا نستسلم، بل ان نستجمع قوانا ونناضل غير هيّابين. واذا ارتجفنا هلعاً قضينا على مقومات اندفاعنا وحماسنا وقتلنا في اعماقنا كل تصميم على الكفاح. بينما استبسالنا في ساحة القتال هو في حدّ ذاته قهر الموت بمجابهة رهبة الموت، وتحدّي هذا الموت بشجاعة هو أول بوادر الانتصار الحقيقي. لأن الارتجاف امام الموت هو بعينه موت الجبناء المنهزمين.

اوميرل : أبي لديه العديد من الرجال. فاتّصلوا به واستعينوا بتوجيهاته الرشيدة لتجنيد جيش مقاتل قوي عنيد.

الملك رتشرد : الحق الى جانبك، يا صاح. تبّاً لبولينبروك من عقوق لئيم. سأجابهه بحزم وانتزع منه الفوز بعزم وإصرار. وما أهون استرداد ما انتزع منّا بسبب خنوعنا، اذا نفضنا عنّا غبار التردد والجمود. قلْ لي، يا إسكروب، أين عمي وقوّاته المسلحة ؟ وليكن كلامك مشجّعاً وإن لم ألاحظ أن البطولة تغلب على مظهرك المرتعش.

إسكروب : من هيئة السماء يستدلّ المرء على ما تخبئه له تقلّبات الطقس. وكما ان ملامحي الكئيبة المرهقة لا يسعها ان تدلّ إلّا على ما يؤثر بي من ظروفي العسيرة، هكذا اكون كالجلّاد عندما اطيل الحديث عن التفاصيل المؤلمة. فأنا لا استطيع ان اخفي عنك ان عمك يورك قد انضمّ الى خصمك بولينبروك، وان جميع رجال شتى قصورك في شمال البلاد قد استسلموا اليه صاغرين، وكل وجهائك في الجنوب قد حملوا السلاح لمناصرته مهلّلين.

الملك رتشرد : كلامك هذا فيه الشرح الكافي. (لأوميرل) لعنة الله تنصبّ عليك لأنك أبعدتني عن سبل الأمل والرجاء. ماذا تقول الآن ؟ أي أمل لي بعد ما حصل ؟ بحق السماء، أنا أكره الى الأبد كل إنسان يحدّثني في هذه اللحظة عن الأمل. لنذهب الى قصر فلينْت حيث أودّ ان انازع واستسلم الى أجلي. فالملك الذي استعبده الشقاء مثلي عليه ان يخضع لإرادة الشر بمشيئة ملكية. أصرفوا جميع القوات المتشبّثة بوفائها لي. وليذهب هؤلاء الرجال ليفلحوا ارضاً تعطيهم بعض الخيرات والغلال. اذا لم يعد لديّ ما أقدمه لهم لقاء ولائهم، ولا اريد ان يراجعني احد في هذا الموضوع الذي أعتبره منتهياً. فكل نصيحة في هذا المجال ستضيع سدىً.

اوميرل : اسمح لي بقول كلمة واحدة، يا مليكي المحبوب.

الملك رتشرد : من يحاول أن يواسيني الآن، يهينني تزلّفه مرّتين. قلت لكم اصرفوا من تبقّى من رجالي الأمناء ودعوهم ينطلقون في سبيلهم، فيتخلّصوا من ليل رتشرد كي يتمتعوا بوضح نهار بولينبروك

(يخرجون).

المشهد الثالث

أمام قصر فلينْت في بلاد وايْلس

(يدخل بولينبروك والطبول تقرع والاعلام تخفق فوق رؤوس جنوده السائرين خلفه. ثم يدخل يورك ونورثمبرلند وآخرون).

بولينبروك : كما يُفهم من هذا الحديث، تفرّق الوايْلسيّون وذهب سالزبري لينضم الى الملك الذي نزل مؤخراً من السفينة الى الشاطئ مع بعض اصدقائه الأخصّاء.

نورثمبرلند : هذا نبأ سارّ جداً، يا مولاي. وقد اختبأ رتشرد في مكان ليس ببعيد من هنا.

يورك : أوليس الأفضل ان يقول لورد نورثمبرلند : الملك رتشرد ؟ حقاً ان يوم اختفاء هذا الملك هو نهار تعيس للغاية.

نورثمبرلند : لقد فهمت خطأً ما أقول، يا مولاي. فقد اختصرت لقبه، ولم أنسَ أن أذكره.

يورك : مرّ علينا زمن، لو كنت اختصرت فيه لقبه، يا مسكين، لكان اختصر هو أيام حياتك وأمر بقطع رأسك حالًا، يا صاح.

بولينبروك : لا تسئ فهم كلامي، يا عماه. فأنا لم أقصد اي استهتار.

يورك : وأنت، يا ابن اخي الطيّب القلب، لا تغالط نفسك اكثر مما فعلت، لئلّا تخلق سوء تفاهم بيننا.

بولينبروك : أنا أعلم بذلك، يا عمي، ولا أخالف مشيئتك. لكن من القادم الى هنا ؟

(يدخل برسي)

بولينبروك (يتابع كلامه) : قل لي يا برسي، ألا ينوي رجال هذا القصر ان يستسلموا ؟

برسي : هذا القصر، يا مولاي، يحوي من السلاح ما يقوى بطريقة ملكية على منعك من الدخول اليه عنوةً.

بولينبروك : كيف تقول بطريقة ملكية، وليس فيه من ملك ؟

برسي : اجل، يا مولاي، في داخله عاهل. لأن الملك رتشر موجود هناك ومعه لورد أوميرل ولورد سالزبري وسرْ اسطفان إسكْروب وايضاً كاهن عالي المقام ل أعرف اسمه.

نورثمبرلند : هو على الأرجح اسقف كارليل.

بولينبروك (لنورثمبرلند) : ايها اللورد النبيل، ارجوك أن تقترب من منحدر هذا القصر القديم، وبواسطة البوق النحاسي ان تطلب من الفرقة الموسيقية ان تبلغ اذنيه السامعتين رسالتي التالية : « يا هنري بولينبروك، عليك ان تجثو على ركبتيك وتقبّل يد الملك رتشرد وتؤدّي له خضوعك وولاءك، وان تصرّح له بأنك قدمت الى هنا لتلقي سلاحك عند قدميه وتضع قوّاتك بتصرّفه آملاً ان تستردّ حريتك كي تعود من منفاك وتسترجع اراضيك. وإلّا سأستخدم قوتي لأطرد كل مشاغب استنزف الدماء من جراح الانكليز المصابين. كم سيصعب على بولينبروك ان تجتاح العاصفة الهوجاء، إخضرار النضارة المتجلية في ارض الملك رتشرد الطيبة حيث سأركع وأبدي له احترامي بخشوع. اذهب واعلمه بذلك بينما نحن نسير على البساط السندسي في هذا السهل الفسيح... (يتقدّم نورثمبرلند نحو القصر ويسبقه صوت البوق) لنسرْ بدون ان ندع ضجة الطبل تفزعه عندما تهزّ أسوار هذا القصر المتداعية، فتسمع بكل هدوء وانتباه اقتراحاتنا المناسبة. وسيُحدث إلتقاؤنا بالملك رتشرد رعشة أخف من العنصرين المتنافرين : النار

والماء، اللذين يمزق دويّهما عنان السماء. ليكن هو
النار، فأصبح أنا الماء الملطّف، وليستشط غضباً،
بينما انا أمطر على الأرض سيلًا من قطرات الغيث.
اقول على الأرض وليس عليه لأنه ليس أهلاً لهذه
النعمة. تعالوا اذاً نتقدّم ونراقب تصرّف الملك
رتشرد. (أحد رجال نوثبمرلند ينفخ البوق، وغيره يجيبه ببوق
آخر من داخل القصر. ثم تصدح الموسيقى).
(يظهر الملك رتشرد على أسوار المدينة مع أسقف كارليل
وأوميرل واسكروب وسالزبري).

يورك : انظروا الى الملك رتشرد الذي يبدو نظير الشمس
المحمرّة من شدة الغضب. بينما من الباب المطلّ
على الجهة الشرقية يبصر الغيوم البيضاء التي تنطق
بمجده وتخفف سرعة سيره نحو الغرب. إن وقار
الملوك لا يزال مرتسما على ملامحه. انظروا الى
عيونه البرّاقة كعيون النسر المتشامخ، تشع جلالاً
ومهابة. لكن، وا اسفاه، كم من الشقاء يظلّل ويعتم
هذه الروعة المتجلية بكل بهائها.

الملك رتشرد (لنورثمبرلند) : انا مندهش جداً. لقد انتظرت حتى
الآن كي تجثو على ركبتك وترتجف أمامي لأني لا
ازال مليكك الشرعي. اذا كنت تعتبرني هكذا، لماذا
لم تركع وتقدّم لي الاحترام والخضوع الواجب

عليك ؟ واذا كنت لا تعتبرني كذلك، بيّن لي أية سلطة جرّدتني من هذه الصفة. لأني على يقين بأن ليس من يد بشرية تستطيع ان تنتزع صولجاني من يدي بدون ان تدوس الشرائع وتسلبني بالعنف حقوقي المقدسة التي أتمتّع بها عن حق وجدارة. ألا اعلم ان الله نصيري، وهو الذي يدعم سلطتي ويعينني على قهر اعدائي ودحرهم. قُلْ لبولينبروك الذي اراه هناك، ان كل خطوة يخطوها على ارضي هي خيانة عظمى لا تغتفر، وانه بإقدامه على هذا التعدّي يعلن عليّ حرباً لا هوادة فيها. وقبل ان يستولي على تاجي الذي يطمع به سيرى عشرة آلاف جمجمة مجندلة على الأرض، تخصّ شباناً من الانكليز ستندبهم أمهاتهم ويلبسن عليهم ثياب الحداد زمناً طويلاً.

نورثمبرلند : لا سمح الله ان تصل، يا ملكنا المبجّل، الى هذا الحل الدموي المريع بخوض حرب اهلية وعسكرية. انا ابن عمك النبيل هاري بولينبروك أقبّل يدك بتواضع وأقسم لك بالتربة المباركة التي تضمّ رفات جدّك وجدّي المجيد وبشرف دمك النبيل ودمي أيضاً، وبساعد جون دي غان المحارب المقدام المتوفّي السعيد الذكر، كما أقسم بأمجاده ومبرّاته

ومآثره الحميدة اني لم آت الى هنا إلّا لألْتمس، وانا أجثو على ركبتي، غفرانك وعفوك عن إبعادي لأعود إلى جوارك وفيّاً كامل الولاء لجلالتك. وحين أحصل على سماحك سأنبذ عدائي وألقي بسلاحي عند قدميك وأكرّس كل تحرّكاتي لخدمة جلالتك بكل مودّة وإخلاص.

الملك رتشرد : اسمع يا نورثمبرلند، جوابي كملك : أهلاً بك وسهلاً، يا ابن عمي. اني اقبل إلتماسك بكل طيبة خاطر. وبكل محبّة أرحب بعودتك الى حظيرة الولاء لملكك العطوف. (يتقدّم نورثمبرلند للتحدث الى بولينبروك. ثم يوجّه كلامه الى أوميرل). لقد مررنا بمرحلة عسيرة، يا ابن العم، وكان موقفنا غير مشرّف. لكن الأمور تبدّلت الآن وعادت المياه الى مجاريها. فهل من حاجة الى تذكير نورثمبرلند بوجوب إرسال تنديد الى الخائن قبل ان ينفذ فيه حكم الاعدام.

اوميرل : كلا، يا مولاي الكريم، علينا ان نقابله بالكلام الرقيق الى ان يعيد الوقت لنا اصدقاءنا، فيساندوننا بتأييدهم وسيوفهم.

الملك رتشرد : يا الهي، هل يتوجب على لساني الذي لفظ حكم الابعاد القاسي الذي اصاب هذا الرجل النشيط ان يلغيه بكلام حلو مسالم. ليتني كنت في مستوى

ألمي وعظمة لقبي. لماذا نسيت في وقت من الأوقات ما كنت عليه وما يجب عليّ ان اكون الآن كملك رحب الصدر حرّ الضمير. لماذا لا تنتفض، يا قلبي الخفّاق ؟ ثابر على نبضاتك باتّزان وحرية كاملة، ما دام اعداؤك لا يزالون طليقين يحاربونك.

اوميرل : عاد نورثمبرلند من قبل بولينبروك.

الملك رتشرد : ماذا يتحتّم علي كملك ان افعل الآن ؟ هل يجب أن استسلم ؟ انا مستعد لقبول ذلك. هل عليّ ان اتنازل عن العرش ؟ انا مستعد ايضاً للازعان في هذا المجال الهامّ. هل عليّ ان افقد لقبي كملك ؟ اكراماً لله، انا مستعد ان أرضى بهذه الفكرة، وسأعطي جواهري مقابل سبحة لأصلّي، وقصري الرائع لقاء صومعة أختلي فيها بنفسي، وحلّتي المذهبة ومجموعة اوانيّ الفضّية لقاء مِسْح وصحن خشبي وضيع، وصولجاني لقاء عصا اتوكّأ عليها في زياراتي المباركة، ورعيتي لقاء ايقونة مقدسة ومملكتي لقاء قبر صغير متواضع. اني أقبل حتى بدفني على قارعة الطريق التي تطأها اقدام رعيتي في كل ساعة. فإن اخصامي يدوسون قلبي وانا حيّ، فماذا يمنعهم من أن يدوسوا رأسي وأنا ميت ؟ هل تبكي، يا ابن عمي الحنون اوميرل ؟ سنخرج أنّاتنا ونزرف وابلاً من

الدمع ونسكبه على قمح الصيف علّنا نجرّ المجاعة على هذه الأرض المتمردة. واذا شئت سنتلاعب بأحزاننا ونستخدم دموعنا لتحوير بعض الاعتبارات. وسنصبّها كلها في حفرتين لتكونا قبرين يضمّان قريباً رفاتنا، وعلى بلاطهما نكتب هذه العبارة البليغة : « هنا يرقد ابنا عمّ حفرا قبرهما بايديهما ». أوّلا يكون شقاؤنا هكذا ملحوظاً ؟ ما هذا الهذيان ؟ ألَا تهزأ بي على هذا القول الغريب ؟ (لنورثمبرلند الذي عاد الى قرب الاسوار). ايها الأمير الجبّار، مولاي لورد نوثمبرلند، ماذا يقول الملك بولينبروك وهل تسمح جلالته لرتشرد بأن يعيش هنا حتى يحين أجله ؟ أنت تحني هامتك، وبولينبروك يجيب : نعم.

نورثمبرلند : يا مولاي، هو ينتظرك في الباحة السفلى للتحدّث اليك. فهل تريد ان تنزل اليه ؟

الملك رتشرد : ها انا نازل كراعٍ لم يعد يقوى على حراسة خرافه الشاردة. (يتقدم نورثمبرلند نحو بولينبروك). في الباحة السفلى حيث ينحدر الملوك الضعفاء ليلبّوا نداء الخونة ويخلعوا عليهم أسمى الأمجاد. لأنزل إذاً الى الباحة السفلى بصفتي الملكية. اذ جاء دور بوم الليل لينعب في المرتفعات حيث يُفترض ان ينشد العندليب.

(يغادر الملك السور مع حاشيته).

بولينبروك : ماذا قلت، يا صاحب الجلالة ؟

نورثمبرلند : الحزن والأسى يجعلان كلامه غير معقول كأنه يهذي. على كل حال هو نازل.

(رتشرد وحاشيته يظهران في اسفل الحصن).

بولينبروك : قفوا جميعكم صفّاً واحدا، وقدموا لجلالته ما يحق له من خضوع واحترام. مولاي الوقور...

(يركع).

الملك رتشرد : يا ابن عمي الحبيب، انت تنحني الى الأرض كثيراً كأنك تمنح هذه الأرض شرف تقبيلها بقدسية. انا افضّل ان يصدر عنك دليل مودة عزيزة على قلبي، بدلاً من كل هذه المظاهر التي تحرج عزّة النفس. إنهضْ، يا ابن العم، إنهض. فمهما التصقت ركبتك بالأرض أنا أشعر بأن قلبك يرتفع على الأقل الى أعلى القمم الشامخة.

(يرفع يده الى رأسه).

بولينبروك : مولاي الكريم، انا لم آتِ الى هنا إلاّ للمطالبة بما هو لي.

الملك رتشرد : ان ما لك يخصّك حتماً، وانا ايضاً لك بكليّتي.

بولينبروك : فلتكن لي، ايها الملك المرهوب، بقدر ما تستحقّ خدماتي من عطفك ورعايتك.

الملك رتشرد : انت اهل للحصول على الكثير. وأعمالك تستحق ان تمتلك من يعرفون أضمن الوسائل للوصول الى ما يرغبون... هات يدك، يا عمّاه، وكفكف دموعك فهي أغلى دلائل المحبة الصادقة، لكنها ليست العلاج الشافي. يا ابن العم، انا حديث السنّ ولا يمكنني ان اكون لك بمثابة والدك، مع انك اكبر سنّاً من أن تصبح وريثي... وما تريده، أنا مستعد أن امنحك إياه بكل ممنونية. إذ علينا ان نفعل ما تضطّرنا القوّة الى القيام به. فلنسرْ نحو لندن... إن شئت، يا ابن عمي.

بولينبروك : اجل، يا مولاي الكريم.

الملك رتشرد : هيّا بنا. لا يسعني ان أرفض.

(تصدح الموسيقى، ويخرجون).

المشهد الرابع

في حدائق قصر لانكلي.

(تدخل الملكة واثنتان من مرافقاتها).

الملكة : بماذا يمكننا ان نتسلى معاً في هذا البستان، لأطرد عني ما يسيطر عليّ من هموم مزعجة ؟

المرافقة الأولى: سنلعب بالكرة، يا مولاتي.

الملكة : هذا يذكرني بأن العالم مليئ بالصعوبات، وبأن حظي بات عاثراً.

المرافقة الأولى: سنرقص اذاً، يا مولاتي.

الملكة : قدماي لا تطاوعانني على ضبط الايقاع في هذه الممارسة، لا سيما عندما يكون قلبي الكئيب أسير الحزن والألم. وهكذا لا يسعني ان ارقص، يا فتاتي. هل لديك تسلية أخرى ؟

المرافقة الاولى: سنقصّ الروايات، يا مولاتي.

الملكة : المرحة أو الكئيبة ؟

المرافقة الأولى: كما تشائين، يا مولاتي.

الملكة : انا لا اريد المرحة ولا الكئيبة. فان كانت مرحة، انا بعيدة كل البعد عن المرح. وإن كانت كئيبة، انا غارقة في بحر الكآبة التي تزيدني حزناً على حزن. وانا لا اودّ ان اضاعف ما أشكوه من الأسى المبرّح ولا أن أضيف الى حزني احزاناً جديدة.

المرافقة الأولى: سأغنّي لك، يا مولاتي.

الملكة : هذا لا بأس به، اذا كان لديك من أناشيد تروّح عن النفس. لكني أفضل إن شئتِ، أن تبكي.

المرافقة الأولى: سأبكي اذاً، يا مولاتي، اذا كان هذا يرضيكِ.

الملكة : وانا ايضاً سأبكي إذا كان ذلك يفتح امامي باب

السلوى، فلا أستعير دموعك لأفرّج عن كربتي. لكن أسكتي... هذا هو البستاني قادم الى هنا. فلنختبئ وراء جذوع هذه الاشجار.

(يدخل البستاني واثنان من الغلمان).

الملكة : أراهن بواحد مقابل مئة أنهما سيخوضون غمار الحديث عن السياسة. لأن كل الناس هكذا يفعلون قبل ان يثوروا. ثم كل كارثة تجرّ وراءها محنةً اخرى.

(تقف الملكة ومرافقاتها جانباً).

البستاني (للغلام الأول) : اذهب وأزح أغصان المشمش التي تشوّش علينا منظر الحديقة، كأنها أولاد طائشون يضايقون آباءهم ويفرضون عليهم ما تستنبطه مخيّلاتهم الخصبة من ألاعيب صبيانية. ثم ار بمسند متين تلك الاغصان المتدلّية. (للغلام الثاني وأنت إذهب بسرعة وإقطع رؤوس الأغصان المتمايلة أمام عيوننا. اذ لا بد للمساواة من أن تسود في حديقتنا. وبينما أنت تقوم بهذا العمل، سأذهب أ لأقتلع الاعشاب الضارة التي تمتصّ الغذاء من التر بدون أن تعطي أية فائدة، بل تحرم الزهور مم تحتاج اليه من خصب الأرض.

الغلام الأول : لماذا تريد ان تطبّق في هذا البستان قواعد النظا

والإنسجام وتجعله نموذج كل مؤسسة رسمية عندما يكون مجالنا بكامله، أي الحديقة التي تجاور البحر، مليئة بأعشاب رديئة تخنق أجمل أزهارها وتضايق أشجارها المثمرة المهملة وسياجها المهدّم وأقسامها التي تعبث بها الفوضى وسائر مزروعاتها المفيدة وتتركها طعمة الديدان والحشرات.

البستاني : أصمت... ان الذي تألم في هذا الربيع المضطرب هو ذاته الذي عجّل في سقوط أوراق الشجر. أمّا الأعشاب الضارّة التي طغت على النبتات الكثيرة وأتلفتها، وإن بدت كأنها تحميها، فقد اقتلعها بولينبرك من جذورها، وانا لا أبرّئ من ذلك كونْت ويلْتشاير وبوشي وكرين.

الغلام الاول : ولكن كيف أُتلفت هذه المزروعات ؟

البستاني : لقد أُتلفت حين سيطر بولينبروك على الملك المهمل... ومن المؤسف ان لا يهتمّ برعاية أرزاقه كما نفعل نحن في مملكتنا أي هذا البستان. اننا عندما يحين الموسم، نجرح القشرة وهي جلدة اشجارنا المثمرة، خوفاً من ان تمتلئ بالنسغ فتتلف من كثرة تغذيتها. فلو كان تصرّف هكذا تجاه الكبار الطامعين، لكانوا إلْتزموا جانب التعقّل وعاشوا لينفعوا وليقطفوا ثمار وعيهم وسعيهم. لاننا نحن نقطع كل

غصن غير مفيد ونوسّع مجال نموّ الأغصان المثمرة. ولو فعل هو هكذا لما سمح لأحد ان يضرّ بمصالح تاجه وعبث بوجود الدولة في سبيل استثمار مشاريعه الشخصية.

الغلام الأول : كيف تظن أن الملك سيضطر الى التنازل عن عرشه ؟

البستاني : لقد طغى عليه اخصامه، ولا يُستبعد أن يجبروه على التخلّي عن مملكته. فإن رسائل وصلت الى هنا الليلة البارحة الى احد اصدقاء دوق يورك تنبئ بحدوث أمور مؤسفة.

الملكة (وهي تخرج من مخبإها) : أكاد أختنق. لا بد لي من ان اتنفّس وأتكلم... يا ظلّ آدم في الفردوس، انت المكلّف برعاية هذا البستان كيف تجرأت بصوتك الأجش على التلعثم بهذا النبأ المشؤوم ؟ أ حوّاء، بل أيّة أفعى زيّنت لك تكرار إسقاط الرجز المتساهل ؟ لماذا تقول ان رتشرد قد خُلع عن عرشه ؟ أنت الهزيل الذي تكاد لا تعلو قامتك عن الأرض تجرؤ على توقّع سقوط الملك ؟ قل لي أين وكيف علمت بهذا النبأ المؤسف ؟ تكلّم أيها الشقي.

البستاني : سامحيني يا مولاتي. لا يسرني ان أتمم هذا النبأ

لكن ما تقوله هو عين الصواب. والملك رتشرد هو الآن في قبضة بولينبروك القوية. وأعتقد أن حظّيهما يتوازيان. ففي كفّة سيدك ليس من شخص سواه، لذا يُعتبر أخف وزناً مما هو في الواقع. غير أن كفّة بولينبروك تحوي ما عدا شخصه المرموق جميع كبار انكلترا. وبفضل هذا الثقل الذي لا يستهان به يرجح وزنه على وزن الملك رتشرد. فأسرعي الى لندن، وهناك ترين ما يقنعكِ بوجهة نظري. لأني لا أنطق إلّا بما يعرفه كل واحد منا حق المعرفة.

الملكة : هذه شائعة سريعة الانتشار يَقصد بها النيل من كرامتي، وأنا آخر من يدري بنواياك الغامضة. انت تريد أن يبلغني انذارك في آخر المطاف حتى انطوي على نفسي وأبقي آلامي حبيسة في صدري. هيّا بنا، يا فتياتي نذهب الى لندن لنقابل ملك لندن المغلوب على أمره. هل وُلدتُ لألاقي هذا المصير المشؤوم ؟ لكي يخنقني حزني بسبب انتصار بولينبروك الكبير ؟ أيها البستاني، لأنك اعلنت لي هذا النبأ المشؤوم أودّ أن لا تزهر النبْتات التي تعهدتها بعنايتك.

(تخرج الملكة ومرافقاتها).

البستاني : مسكينة انتِ، أيتها الملكة. لو كان هذا يخفف

آلامك لفضّلت ان تظل مهنتي ضحية لعنتك. فان سالت دمعتك هنا في هذا المكان بالذات لزرعت ارض الشارع أعشاباً لا تلبث ان تجفّ. لأن الشارع هو رمز الحزن الذي يبرز هنا قريباً لإحياء ذكرى ملكة منكوبة.

(يخرجون).

الفصل الرابع
المشهد الأول

في قاعة وستمنستر بلندن.

(اللوردات الروحيون في موقعهم الى يمين العرش واللوردات الزمنيّون
الى اليسار، وسائر رجال الدولة تجاهه).
(يدخل بولينبروك وأوميرل وسوراي ونورثمبرلند وبرسي
وفيتزواتر ولورد آخر وأسقف كارليل وكاهن وستمنستر
ورجال الحاشية وضبّاط يرافقون باكوت ويختتمون التطواف).

بولينبروك : دعوا بركوت يتقدّم... والآن عبّر يا بركوت، عن افكارك بحرية تامّة. اخبرنا بكل ما تعرفه عن موت النبيل كلوسستر، وعمّن شارك الملك بالتخطيط له، ومن نفّذ هذا العمل الإجرامي الدامي وقرّب أجله بهذه الطريقة الدنيئة ؟

باكوت أودّ مواجهة لورد أوميرل.

بولينبروك : (لأوميرل) : تقدّم، يا ابن العم، وانظر الى هذا الرجل الذي يسأل عنك.

باكوت : مولاي لورد أوميرل، أنا أعلم بأن لسانك الجسور لا يحب تكذيب صاحبه. فحين حيكت مؤامرة اغتيال كلوسستر، سمعتك تقول : أولستُ طويل الباع ؟ انا الذي استطعت انطلاقاً من بلاط انكلترا المسالمة، أن أتوصّل الى القضاء على عمي في مدينة كاليه الفرنسية ؟ ومن جملة أحاديثك في ذلك الزمان، سمعتك ايضاً تصرّح بأنك تفضّل ان ترفض عرْضاً يؤمّن لك مبلغاً يناهز مئة الف كراون على أن تقبل بعودة بولينبروك الى انكلترا. واعترفت قائلاً ان موت ابن عمك هو نعمة بالنسبة الى هذه البلاد.

اوميرل : ايها الأمراء واللوردات الأفاضل، ما هو الجواب الذي يمكنني أن أعطيه لهذا الرجل الخسيس ؟ هل عليّ أن أتدنّى الى مستواه لأُنزلَ به ما يستحقّه من العقاب ؟ ام عليّ ان اقنع وأدعه يلوّث سمعتي بما تتهمني به شفتاه عن مكر وافتراء ؟... هذه وجهة نظري في ما يتعلق بجريمة ارتكبتها يداك واستحققت عليها عذابات الجحيم. أنا أعلن أنك كاذب وأصرّ على القول ان كل ما تتفوّه به خطأ فاضح، وأنا مستعد لإثبات كلامي، وإن اضطررت

الى سفك دمك الذي ليس أهلاً لحقنه، لأنه نجس.

(يلقي بقفازه الى الأرض).

بولينبروك : توقّف، يا باكوت. فأنا أمنعك من رفعه عن الأرض.

اوميرل : أودّ أن أكون أشهر أعضاء هذا المجلس الكريم، ما عدا واحد فقط هو الذي استفزّني.

فيتز واتر : اذا كان مقامك يتطلّب شخصاً يوازيك قيمة، فهذا تحدّي، يا أوميرل، يقابل تحدّيك. (يرمي بقفازه أرضاً). بحق هذه الشمس الساطعة التي تتيح لي أن أراك حيث أنت الآن، سمعتك تقول وأنت تتبجّح بأنك سبب موت النبيل كلوسستر. فإن أنكرت ذلك تكون قد كذبت عشرين مرة، وأنا مستعد لأن أردّ كيدك الى نحرك بحدّ هذا السيف البتّار.

اوميرل : لن تجرؤ، يا جبان أن تعيش لترى ذلك اليوم الذي تصبو اليه.

فيتز واتر : آه، بحق السماء، كم أودّ أن يتمّ ذلك حالاً.

اوميرل : لأنك منذ الآن من زبانية جهنم.

برسي : أنت منافق يا اوميرل. أمّا هو فصادق في هذا التحدّي بقدر ما أنت سيّئ القصد. وبناءً على ذلك، أنا أُلْقي قفازي أرضاً، وأدعم تصريحي حتى تلفظ أنفاسك الأخيرة. فهيا ارفعه عن الأرض اذا تجرأت.

(يرمي بقفازه الى الأرض).

اوميرل : واذا لم ألمّه فلْتُشلّ يدي، ولن تقوى على حمل سيفي الناقم لضرب خوذة عدوّي وشق رأسه.

أحد اللوردات : أنا مصمّم على التصرّف مثله، وأتحدّاك رغم كل التكذيبات التي قد تصل الى سمعك المتضائل يوماً عن يوم. هذا هو تصميمي وأنا مصرّ على الدفاع عن شرفي. فتفضّلْ اذا تجرأت.

اوميرل : من الذي يتحدّاني هكذا ؟ بحق السماء، انا القي بقفازي في وجه الجميع. لأن في صدري شجاعة كافية لأتحدّى عشرين الف شخص نظيرك.

سوراي : مولاي اللورد فيتز واتر، اني لا ازال أتذكّر ما حدّثت به اوميرل.

فيتز واتر : هذا صحيح، يا مولاي. إذ إني حاضر ويسعك أن تؤكد أن ما فُهْتُ به هو الحقيقة بعينها.

سوراي : أُقسم ان هذا خطأ بقدر ما هي السماء حقيقة أكيدة.

فيتز واتر : أنت كاذب، يا سوراي.

سوراي : يا عديم الشهامة والشرف، سيكلّفك هذا الكذب انتقام سيفي الأبيّ حتى تعترف أيها المنافق الخدّاع بريائك المفضوح قبل أن ترقد في أعماق القبر الى جانب جثمان أبيك. .وبناءً على ذلك أُلْقي إليك بقفازي، فاختبر مُنازلتي إن كنت شجاعاً.

فيتز واتر : غبيّ من يهمز جواداً جافلاً. ان كنت جريئاً في

الأكل والشرب والتنفّس والعيش الهنيء، تراني جريئاً في مجابهتك، يا سوراي، حتى في أقاصي الصحراء لأبصق في وجهك واكرر قولي لك : انك كاذب، كاذب، كاذب. وهذا ما يدعوني الى معاقبتك بصرامة. (يرمي بقفازه). وكما اني مصمم على نشر الازدهار حيثما أدخل، أؤكد لك أن اومبرل إقترف ما أتهمه أنا به من قبائح. من جهة اخرى، سمعت ما يقال للمبعد نورفولك أنك أنت أوميرل قد أرسلت رجلين لقتل النبيل دوق كاليه.

اوميرل : ليمنحْني أي رجل ثقته، فأعلن له أن نورفولك منافق دجّال، واني أتحدّاه وأدعوه الى الدفاع عن شرفه المهان.

بولينبروك : ستبقى كل هذه المشاحنات معلّقة الى ان يُستدعى نورفولك من منفاه. أجل سيُستدعى وإن يكن عدوّي، وستعاد اليه ألقابه وأرزاقه بكاملها. وحين يرجع سأجمعه بأوميرل.

اسقف كارليل: هذا اليوم الذي ترجوه لن يأتي أبداً. كم مرة قاتل المنفي نورفولك في سبيل ايمانه، وقد رفع شأن دينه عالياً في وجه الوثنيّين المنبوذين من اتراك وسواهم. أخيراً بعد أن تعب من هموم الحرب إنسحب الى ايطاليا، وهناك في مدينة البندقية، أُودع جثمانه تراب

تلك البلاد الجميلة وصعدت روحه الى السماء التي ناصرها دوماً أثناء كفاحه الطويل المجيد.

بولينبروك : هل مات أسقف نورفولك ؟

اسقف كارليل : أجل، هذا لا شك فيه، كما اني حيّ أخاطبك، يا مولاي.

بولينبروك : رحمة الله عليه. أرجو أن تكون نفسه الطاهرة قد انتقلت الى احضان ابينا ابراهيم... أيها اللوردات المتنازعون، إعلموا جيدا أن جميع خلافاتكم معلّقة في الوقت الحاضر حتى أَلْمُسَ أن نواياكم قد تحسّنت.

(يدخل يورك وحاشيته).

يورك : يا دوق لنكاستر الفضيل، اني آتي اليك من قبل رتشرد المخلوع عن عرشه وقد اختارك، بملء رضاه، وريثاً له وشاء أن يضع صولجانه السامي وديعة في يدك المباركة. فارتقِ العرش بما أنك منذ الآن أصبحت خليفته الشرعي، وليحيا هنري الرابع طويلاً بهذا الاسم المجيد.

بولينبروك : باسم الله، أجلس على عرش هذه المملكة.

اسقف كارليل : لا سمح الله بذلك. وإن لم يستحسَن كلامي هذا الجمع الملكي الحاضر ها هنا، يجمل بي أوّلاً أن أقرّ بالحقيقة. لقد قدّر الله أن يوجد في هذا الجمع النبيل

رجل شجاع شهم أبيّ يسعه أن يحكم بالعدل على رتشرد النبيل. وهكذا تحمله اصالته على الامتناع عن إصدار مثل هذا الحكم العدائي الجائر. مَن مِن الرعايا يمكنه أن يحاكم ملكه رتشرد ؟ لا أحد يستطيع أن يدين المتهم بدون ان يصغي الى دفاعه عن نفسه، مهما كان جرمه ظاهر للعيان ؟ فهل يُعقل ان يحاكَم غيابياً مَن هو مخلوق على صورة الله، وهو يمثّل السلطة السماوية على هذه الأرض بتاجه وصولجانه منذ سنين عديدة، وأن يحاكمه شخص من رعاياه المتمردين، بينما صاحب الحق غائب. ألْتمس منك اللّهمّ ان لا تسمح في منطقة متمدّنة متديّنة تؤمن باسمك القدوس، بان يسود روح الظلم البغيض والباطل الطاغي. انا اخاطب رعايا هذه المملكة المسالمة الذين كما أكلوا خبز مليكهم يتحتّم عليهم ان يضربوا بسيفه القاطع للدفاع عن حقوقه الشرعية. ان مولاي هيرفورد الحاضر ها هنا، والذي رضيتم به ملكاً ليس سوى خائن شرير عادى ملكه الأصيل المتوّج. واذا ما نصّبتموه عنوةً أتوقع ما يلي : سيروي الدم الانكليزي هذه الأرض المفجوعة وستئنّ الأجيال القادمة في هذا الضيـاع الشاذ. وسيغيب السلام عن أجواء هذه البلاد الهادئة. وفي هذه الحالة ستنشب حروب فظيعة بين الاسر الكبيرة

والأهالي. وستعمّ الفوضى وينتشر الإرهاب والخوف والتمرد، وسيعلو هذه الأرض جبل من الجماجم البشرية. فاذا استباح الجار حقوق جاره أمست هذه البلاد الملعونة مسرح الحقد والنقمة ومرتع الظلم والضلال. فامنعوا اذاً حدوث هذه الكـــوارث وقادموها بكل قواكم كي لا تحلّ بكم وتهلككم كي لا يصبّ عليكـم أولادكـم وأحفادكـم في المستقبل لعنات إبليس الرجيم.

نورثمبرلند : هذه محاضرة موفقة جداً. وكمكافأة لك على القائها بنجاح نقبض عليك كمجرم متلبّس بالخيانة العظمى. فيا لورد وستمنستر، أكلّفك بأن تحفظه تحت حراستك حتى يوم محاكمته العاجلة. وأرجوك، يا مولاي، أن تباشر التحقيق في قضيته حالاً.

بولينبروك : ليذهب أحدكم ويجلب رتشرد، لكي يتنازل عن عرشه أمام المسؤولين الحاضرين هنا. وهكذا لا يبقى من سبيل للطعن في صحّة إجراءاتنا.

يورك : انا أود ان أكون دليله

(يخرج).

بولينبروك : أيها اللوردات الحاضرون في هذا المكان المهيب: تعهّدوا بالمجيء الى هذا المكان في اليوم المعيّن (لأسقف كارليل) أنا مدين لجهودك ولاهتمامك بهذ

القضية، وأتّكل كثيراً على مساعدتك.

(يدخل يورك برفقة الملك رتشرد وعدة ضباط يحملون التاج والشارات الملكية).

الملك رتشرد : يا للأسف، لماذا أنا مطلوب للحضور امام ملك قبل أن تنقلب الأساليب الملكية التي كنت أحلم بموجبها ؟ كِدْتُ اتعلّم التلميح والتمليق والتحية والاغناء. دعوا الوقت يدرّبني على الخضوع. (ينظر حواليه) اني أتذكر جيداً ملامح هذا الرجل. أولم تقصد أن تلوذ بي كغيرك؟ أولم يكن الجميع في الماضي يهتفون بحياتي وهم يحيّوني؟ هذا ما حدا بيهوذا ان يتنكّر لمعلمه وينكره ؟ لكنه كان واحداً من اثني عشر من اتباعه الاخصّاء. بينما أنا بالنسبة اليّ لم أجد واحداً على اثني عشر الف من رجالي، وفيّا أخلص لي بنزاهة وتجرّد. أطلب من الله أن ينقذ الملك، ولا اسمع أحداً يقول آمين. هل أنا في آن واحد كاهن الهيكل والضحية ؟ فليكن، لأهتف لنفسي آمين ثم آمين، عندما أكرّر توسّلي الى الله كي ينقذني أنا الملك، مع أني لم أعد ملكاً. ثم مرة أخرى أهتف آمين، حين ألتمس من السماء ان تشاء بقائي كملك مدى العمر. والآن لماذا أرسلتم في طلبي ؟

يورك : لتقوم بملء رضاك بما يُقدم على فعله كل صاحب

جلالة متعب، وهو مضطر الى التنازل نظيرك عن العرش الى هنري بولينبروك.

الملك رتشرد : اعطوني تاجي. إليك بهذا التاج، يا ابن عمي. أنا أُمسك به من هذه الجهة وأنت تُمسك به من الجهة الأخرى. ها قد أصبح وأنت تُمسك به من الجهة الأخرى. ها قد أصبح هذا التاج الذهبي مثل بئر عميقة يتدلى فيها دلوان يمتلئان الواحد بعد الآخر، الأوّل فارغ يتأرجح في الهواء بدون انقطاع، والثاني مملوء يغوص في قعر الماء. فالدلو السفلي الطافح بالدموع، هو مثلي يثقله الألم، والدلو العلوي الصاعد هو أنتم الحاضرون ها هنا لمشاهدة مصيري.

بولينبروك : كنت أظن أنك تتخلّى عن العرش راضياً ؟

الملك رتشرد : نعم أتخلّى عن تاجي. لكن أحزاني باقية تتشبث بي. باستطاعتكم ان تحرموني من أمجادي ومن سلطتي، لكن ليس من عذاباتي. فأنا أظل محتكر هذه الآلام على الدوام.

بولينبروك : أنت أطلعتني على قسم من همومك الناجمة عن تاجك.

الملك رتشرد : أما همومك أنت المتزايدة، فلا تزال نوعاً ما همومي أنا. وما يشكل همومي الحاضرة سببه فقداني همومي الماضية. بينما همومك الحالية تقوم على

اكتسابك هموماً جديدة تضاف الى سابقاتها. سأحتفظ مع ذلك بكل همومي التي أتنازل لك عنها مرتبطة بالتاج وهي تتشبث بصاحبها بإصرار وإلحاح.

بولينبروك : هل توافق فعلاً على التخلي عن العرش ؟

الملك رتشرد : نعم ولا. نعم، لأني سئمت وبتُّ أريد أن أكون أي شخص عادي. ولا، لأني أتنازل لك عن عزّي بعدما صرت إليه من شقاء. لاحظ اذاً كم سأعرّي ذاتي عندما أنتزع عن رأسي هذا التاج الثقيل، ومن يدي هذا الصولجان المربك، وعن كاهلي وقر السلطة الملكية. وها هي دموعي تغسل جبهتي من الزيت المقدس الذي مُسحت به، وبصوتي أُلْغي قسمي للمحافظة على وفائي، وأتخلّى عن كل أبّهة وأهجر رفاه قصوري وأتغافل عن عائداتي وارداتي واتغاضى عن امجادي ومقرّراتي وحقوقي. وألتمس من الله ان يسامح كل من يحنث بالعهود التي أُبرمت لصالحك. وأرجو منه تعالى ان يبعد عني كل مكروه من الآن وصاعداً وان يستجيب ادعيتك يا من حصلت على جميع امنياتك. ألتمس لك حياة مديدة وأنت جالس على عرشي أنا رتشرد، على أن أحظى قريباً بضريح لائق يضمّ رفاتي. صان الله الملك

هنري. هذه امنيتي الأخيرة، أنا الملك السابق رتشرد. ولتعش سنين عديدة وأياماً سعيدة. ماذا بقي عليّ الآن ؟

نورثمبرلند (يقدّم له ورقة) : بقي عليك ان تقرأ هذه الاتهامات وهذه الجرائم الفظيعة التي ارتكبتها أنت شخصياً أو ارتكبها أحد أفراد أسرتك بحق الدولة ومصالح هذا البلد، حتى يقتنع الجميع بعدالة إقصائك عن الحكم.

الملك رتشرد : هل يتحتّم عليّ القيام بذلك ؟ هل يجب عليّ أن أفضح سيئاتي وتهاوناتي. لو كانت أخطاؤك مسجلة، يا نورثمبرلند، ألا تخجل من تلاوة وقائعها أمام جمهور محترم كهذا ؟ لو طاوعت مثل هذا الطلب لوجدت بنداً فظيعاً ينصّ على خلع ملك وعلى نقض عهد مقدس ترذله الكتب السماوية. أجل أنا وأنتم جميعاً يا من ينظرون اليّ شذراً وقد راعكم هول الكارثة. لا آبه إن كان فيما بينكم من يشابه بيلاطس عندما غسل يديه من دم الصدّيق، وهو يتظاهر بتبرير عمله وبالاشفاق على ذاك الصدّيق. أنتم كلكم كبلاطس تدفعونني الى هلاكي المرير، وليس أمامكم من ماء لغسل ايديكم الملطّخة.

نورثمبرلند : عجّل، يا مولاي، واقرأ هذه البنود.

الملك رتشرد : عيناي مليئتان بالدموع ولا يسعني أن أبصر، مع أن

الماء المرّ المذاق لا يعمي انظار من لا يستطيعون ان يروا هنا مجموعة من الخونة المنافقين. نعم اذا حوّلت عينيّ الى نفسي أراني خائناً مثل غيري، لأني قبلت في هذا المكان بالذات ان أعرّي جسداً ملكياً مباركاً، ولوّثت صفحة امجادي ورهنت حريّة سيادتي وأخضعت جلال مقامي السامي لنير الاستبداد والظلم.

نورثمبرلند : يا مولاي ...

الملك رتشرد : أنا لست مولاك، أيها الرجل المتعجرف الوقح، أنا لست سيّد أحد بعد الآن، وقد فقدت لقبي ولم يعدْ لي من صفة أعتزّ بها، حتى ولا الاسم الذي دعيت به يوم مولدي. لماذا سلبتني اياه ؟ وا أسفاه. ما هذه المصيبة ؟ لقد اجتزت عدة مراحل شقاء واذلال، فلم أعرف كيف أُدْعى الآن. تبّاً لي من ملك ذريّ كأني مصنوع من الثلج ومعرّض للهزء ولشمس بولينبروك التي تذيب كالجليد كل ماضيّ الحافل... كنت ملكاً صالحاً عظيم الشأن، ومع ذلك لم أكن على قدر المقام. اذا كان لا يزال لكلامي من قيمة في انكلترا، تصرفوا حسب أوامري، واجلبوا لي مرآة لأرى فيها كيف أمسى محياي بعد أن غادرني جلال مُلْكي.

بولينبروك : ليذهب أحدكم ويجلب له مرآة.

(يخرج أحد رجال الحاشية).

نورثمبرلند : إقرأ هذه الورقة، بانتظار جلب المرآة.

الملك رتشرد : لماذا تريد أن تعذّبني، أيها الشيطان، قبل أن أصل الى مقرّك في الجحيم ؟

بولينبروك : لا تصرّ على هذا الطلب، يا مولاي نورثمبرلند.

نورثمبرلند : اذاً لن يرضى رجال المجلس عن هذا التصرف.

الملك رتشرد : سوف يرضون. وسأقرأ ما فيه الكفاية عندما أرى أمام عينيّ كل ذنوبي ماثلةً بوضوح. (يدخل الرجل وبيده مرآة يقدمها لرتشرد) اعطني هذه المرآة. ففيها أودّ ان أقرأ... ماذا ارى ليس من تجاعيد اعمق مما تصوّرت. فالألم الذي اجتاح وجهي لم يُحدث ثلوماً اعمق ممّا تلقيته من طعنات. تبّاً لك من مرآة خدّاعة نظير المتزلفين عند تلقّف عطاياي. أهذا محيّا من كان كل يوم يؤمّن حاجات عشرة آلاف شخص يتودّدون إليه تحت سقف قصره ؟ هل هذا هو الحاكم المشرق كالشمس الذي كان الجميع يخفضون أبصارهم أمام أنظاره ؟ أهذا هو الجبين الذي جابه ربوات من تصرّفات الهوس والجنون، والذي تلقى ما ألحقه به بولينبروك من إذلال لا يطاق ؟ ان مجداً يتلألأ على المحيا الظاهر في هذه المرآة هو سريع العطب كما ان هذا الوجه سريع الزوال كهالة المجد الباطل. (يلقي بالمرآة الى الأرض

فتنكسر). هذا هو وجهي الحقيقي وقد تحطّم وتحوّل الى ألف شظية. إستوعبْ، أيها الملك الصامت مَغزى المشهد الكئيب الذي شوّه نضارة وجهي.

بولينبروك : ان طيف عذابك هو الذي شوّه ملامح وجهك.

الملك رتشرد : كرّر ما قلت : طيف عذابي. هذا صحيح، لأن حزني دفين في أعماق صدري. وما سحنة شقائي الخارجية إلّا خيال أساي غير المنظور الذي يختمر بهدوء في قرارة نفسي المعذّبة. هذا هو سرّ مصابي الذي أشكرك عليه، أيها الملك الكريم ؛ لأنك لم تقم حجةً فقط على مصدر بلواي بل دفعت آلامي للارتقاء الى مستوى قضيّتي الخاسرة. لكني مع ذلك أسألك منّة، بعدها يمكنني أن أمضي في سبيلي، ولن أسبّب لك أي إزعاج في مستقبل الأيام. فهل آمل بالحصول على طلبي ؟

بولينبروك : ما هو طلبك، يا ابن عمي الحليم ؟

الملك رتشرد : تدعونني ابن عمك الحليم، وأنا لا أزال اكبر من ملك. لأني عندما كنت ملكا لم يكن المتزلّفون اليّ سوى رعاياي. أمّا الآن فقد أصبحتُ مثلهم، اذ اني أجد أمامي ملكا متزلّفاً. وبما أني بتّ عظيماً بهذا المقدار، لم يعد لي من حاجة التمسها.

بولينبروك : مع ذلك أطلب ما تشاء.

الملك رتشرد : حقاً هل استطيع ان أطلب ما أشتهي ؟

بولينبروك : أجل، وستناله.

الملك رتشرد : اذاً دعني أنطلق بسلام.

بولينبروك : الى أين ؟

الملك رتشرد : الى حيث تريد، بشرط أن أكون بعيداً عن نظرك.

بولينبروك : ليواكبه بعض الرجال الى سجن البرج.

الملك رتشرد : الموكب رائع فعلاً. لقد عرفت كيف تدبّر لي رفعة مطمئنة، يا من ارتفعت بسهولة عند سقوط الملك الشرعي.

(يخرج الملك رتشرد، يواكبه بعض اللوردات وأفراد من الحرس).

بولينبروك : الى اللقاء يوم الاربعاء القادم حين أعيّن رسمياً موعد تتويجي. فاستعدّوا، أيها اللوردات.

(يخرج الجميع ما عدا كاهن وستمنستر وأسقف كارليل وأوميرل)

اسقف كارليل : لم يأت الشتاء بعد. لأن الأولاد الذين سيولدون سوف يشعرون بمرارة هذا اليوم المشؤوم الذي سيعذّب ضميرهم ويخذه كالأشواك الحادة الأليمة.

اوميرل : يا لهول الكارثة. ألا يوجد من وسيلة خفيّة لإنقاذ هذه المملكة من مثل الكارثة التي تداهمنا.

كاهن وستمنستر : قبل ان اعبّر عن فكري بصراحة، يا مولاي، استحلفك بأعزّ ما لديك، ان تتعهد ليس فقط بالمحافظة على مشاريعي طيّ الكتمان بل أن تنفّذ بأمانة ما سأتخذه من قرارات. اني ارى الاستياء ظاهرا على وجوهكم والدموع تجول في عيونكم والحزن كامناً في قلوبكم. هيا نذهب للعشاء عندي فأعرض عليكم برنامجاً يعيد الينا جميعاً تلك الأيام السعيدة التي فقدناها.

(يخرجون).

الفصل الخامس
المشهد الأول

قرب برج لندن.

(تدخل الملكة وبعض السيدات).

الملكة : سيمرّ الملك من هنا. ها هو الطريق الذي يوصل الى البرج الرهيب الذي بناه يوليوس قيصر والذي يحوي سجناً ارسل اليه بولينبروك المتعجرف مولاي الملك رتشرد المحكوم زوراً. هيّا بنا لنرتاح ها هنا، وقد أدّت هذه الظروف الظالمة الى إبعاد المرأة المحترمة عن زوجها الملك الشرعي.

(يدخل الملك رتشرد بصحبة الحرس).

الملكة : مهلاً، ألا تريد أن تنظر الى وردتي الآخذة بالذبول ؟ لكن لا، ارفع عينيك وتأمّلها بشكل يجعلك كأنك تطلّ عليها مشفقاً، كندى الصباح الذي ينعشها

ويكفكف دموعها وقد دحرجها الحب على خدّيها الشاحبين. أنت يا شبيه الصحراء حيث كان موقع مدينة طروادة مهد الشهامة والمروءة وضريح الملك رتشرد الذي لم يعد ملكاً. ايها الصرح الفخم، لماذا تأوي اليك الآلام العاتية، وقد أمسى الفرج كصيف الحانات والملاهي عسيراً مرهقاً.

الملك رتشرد : أيتها المرأة الفاتنة، لا تألفي العذاب وتُقرّبي أجلي. حاولي أيتها الصديقة العزيزة، أن لا تري في فاتحة عهدنا الجديد سوى حلم سعيد استفقنا منه لنعيش مثل هذا الواقع الأليم. يا حياتي، أنا رفيقك الأمين الذي يلازمه مصيره المنحوس، وقد تحالفت وإيّاه حتى الممات. أسرعي الى فرنسا وانزوي في أحد أديرة الراهبات. اذ علينا أن نكسب عطف العالم بما نبديه من فضيلة وإباء في دنيا غريبة تعويضاً عما سُلب منا من أويقات حلوة قضيناها على هذه الأرض المسالمة.

الملكة : ماذا تقول ؟ هل تغيّرت، يا عزيزي رتشرد، وضعفت معنويّاتك كما هزل جسمك ؟ هل اغتصب بولينبروك ذكاءك أيضاً ؟ هل داس حتى قلبك وعواطفك ؟ ان الاسد المنازع لا يتردّد في تخديش الارض ببراثنه، اذا لم يستطع ان يأتي ببادرة أخرى

عندما يستولي عليه الغضب. وأنت نظير تلميذ المدرسة تقبل القصاص بإزعان، أراك ترضخ وتنوء تحت وطأة الأسى والإساءة بوضاعة مخجلة، أنت الأسد الشامخ ملك الغابات والبراري.

الملك رتشرد : أنا فعلاً ملك البراري : لو لم أكن سيّد البهائم، لكنت بقيت ملك البشر. يا عزيزتي الملكة سابقاً، إفترضي أني قضيت نحبي، واستعدّي للرحيل الى فرنسا، معتبرةً أنك تقبّلت هنا وداعي الأخير كأني على فراش الموت. في ليالي الشتاء الطويلة، قرب الموقدة مع الاشخاص المسنّين، أحكي لهم قصص عهد الشقاء الذي انقضّ علينا منذ زمن بعيد. ثم قبل أن تتمنّي لهم ليلة سعيدة ردّاً على حكاياتهم الحزينة، اسردي لهم قصة سقوطي المريع، ثم دعيهم يأوون الى أسرّتهم والدموع تملأ عيونهم. فيلوذون بلوعة وضيعتهم الأليمة، ونظير الجمر وهو ينطفئ يغطي بعضه رماد الشفقة والبعض الآخر يمسي فاحم السواد كأنه يلبس ثياب الحداد على الملك الشرعي المخلوع.

(يدخل نورثمبرلند وحاشيته).

نورثمبرلند : مولاي، ان نوايا بولينبروك قد تبدّلت. فستذهب الآن الى بمْفرات لا الى البرج. وأنتِ ايضاً يلا مولاتي،

صدر القرار بترحيلك عاجلاً الى فرنسا.

الملك رتشرد : يا نورثمبرلند، انت السلّم الذي ارتقى عليك بولينبروك الى العرش. لكن بعد انقضاء بعض الوقت، كن على يقين بأن هذا المغتصب المتغطرس سيغرق في مستنقع الإثم والفساد. انت تفكّر فيما اذا كان ينوي أن يقسم مهامّ المملكة بينك وبينه مناصفة، لكنك ستجد أن نصيبك هكذا زهيد جداً. وهو يفكّر بأن يبقى على العرش ملكا غير شرعي، ويخشى أن تتوصل انت الى إيجاد طريقة لتدحرجه من عليائه، والانفراد طبعاً وحدك بالعرش الذي حاول أن يستأثر به لنفسه. لأن الصداقة بين شرّيرَيْن لا تلبث أن تتحوّل الى هلع ثم الى حقد يدفع أحد الفريقين، إن لم يدفعهما كليهما الى السقوط ضحية الكارثة التي تدهورهما معاً الى قعر هاوية الهلاك كما يستحقّان.

نورثمبرلند : ليسقط ذَنْبي كالفأس على عنقي، وينتهي عذابي. ليودّع احدكما رفيقه وليفترق عنه حالاً، لأن موعد رحيلكما قد حان.

الملك رتشرد : هذا طلاق مضاعف... بما أنكما شقيّان لا يصدر عنكما إلا الأذى ها قد هدمتما زواجاً مزدوجاً. أولاً بيني وبين تاجي، ثم بيني وبين شريكة حياتي. (للملكة). دعيني أحلّ بقبلة ما يجمعنا من روابط .

أقول بقبلة ؟ هذا محال، لأن عهودنا هذه عُقدت بقبلة صادقة. ولنفترق، يا نورثمبرلند، أنا أذهب الى الشمال حيث المناخ يقسو ببرده القارس المهلك، وزوجتي الى فرنسا من حيث أتت بأبّهة، مزدانةً بالزهور نظير شهر أيّار المشرق المعبّق بشذى الورود والرياحين، وهي عائدة مرغمةً كئيبة مثل شهر تشرين العبوس.

الملكة : ايتحتّم علينا أن نفترق، وأن يكون أحدنا بعيداً عن رفيقه ؟

الملك رتشرد : نعم. لا بد ليدي من أن تنفصل عن يدك، يا حبيبتي، ولقلبي من أن ينسلخ عن قلبك العطوف.

الملكة : (لنورثمبرلند) : عليك ان تنفينا نحن الاثنين معاً الى جهة واحدة. فاطرد الملك كي يذهب بصحبتي.

نورثمبرلند : هكذا لن يكون تساهلي رفقاً إنسانياً بل عملاً سياسياً زهيداً.

الملكة : اذاً دعني أصحبه الى حيث يمضي هو.

الملك رتشرد : ان شقاءَيْن يتشاكيان همومهما لا يشكّلان سوى بؤس واحد. فاندبي أنتِ سوء حظي في فرنسا، وأنا أندب حظك المنكود ها هنا. لأن الأفضل أن نكون بعيديْن أحدنا عن الآخر من أن نكون قريبيْن لا امان يجمعنا ولا ارتياح. اذهبي وعدّي خطواتك المقرونة

بآهاتك وأنا أعدّ خطواتي مشفوعةً بدموعي السخية.

الملكة : بما ان طريقي هو الأطول، ستكون شكواي ايضاً هي الأجدى.

الملك رتشرد : اما طريقي أنا فهو الأقصر. لكن دموعي ستتضاعف في كل خطوة، وسيطول دربي بمقدار قنوطي. هيّا، هيّا، لنكفّ عن المناجاة في ظل الألم. تعالي نختتم وداعنا بقبلة صامتة (يتعانقان) وهكذا أعطيك قلبك وتأخذين قلبي.

الملكة : أعد اليّ قلبي، وأنا يجمل بي أن لا أحتفظ بقلبك وأمزّقه (يتعانقان ثانية). والآن وقد استرجعت فؤادي، إذهب وأنا سأحاول أن أغلّفه بدموعي ونحيبي.

الملك رتشرد : هكذا يرافق الشقاء تباطؤنا المهووس. وداعاً أخيراً. ولنترك بؤسنا يحكي ما تبقّى من لوعتنا.

(يخرجون).

المشهد الثاني

في قصر دوق يورك

(يدخل الدوق ودوقة يورك).

الدوقة : مولاي اللورد، قلت عندما منعتْك دموعك من الكلام

أنك ستكمل لي سرد قصة رجوع ابنَيْ اخينا الى لندن.

يورك : نعم، الى اين وصلت ؟

الدوقة : الى لحظة امتداد الأيدي القاسية من النوافذ لرمي النفايات والاقذار على رأس الملك رتشرد.

يورك : قلت اذاً ان الدوق بولينبروك الكبير قد امتطى صهوة جوادٍ حرون يبدو كأنه عرف مهارة فارسه وتابع خطواته البطيئة المهيبة، بينما هتفت جميع الأصوات: « حفظك الله يا بولينبروك ». وقد خُيّل الى الجميع ان النوافذ كانت تصرخ أيضاً والوجوه الفتيّة والمسنّة تتقاطع كأن إشعاع نظراتها مسلّط على محياه، وان جميع الجدران تصيح هي ايضاً « حفظك الله، واهلاً بك، يا بولينبروك ». بينما هو التفت الى هذه الجهة وتلك مكشوف الرأس، وقد تدلّى جنباه الى مستوى أسفل بطن حصانه الفخور وهو يقول لهم : « اشكركم، ايها المواطنون ». ويتقدم هكذا وهو يكرّر عبارته هذه بدون انقطاع.

الدوقة : وا أسفاه. ماذا حلّ بالمسكين رتشرد ؟ كيف كانت سحنته وهو على متن جواده ؟

يورك : نظير الجمهور الصاخب في قاعة المسرح حالما يترك الممثل المفضّل خشبة هذا المسرح. ثم تُلقى نظرة

عدم مبالاة على من يدخل بعده من الممثلين العاديّين، وهم غائصون في ثرثرة مبهمة لا طعم لها ولا لون. هكذا، وبصورة اكثر ازدراءً، وقعت العيون على رتشرد. ولم يصرخ احد « حفظه الله ». وليس من ثغر إبتسم ليحيّي عودته، بل كان الجميع يذرّون الرماد على رأسه العاري. بينما هو مكفهرّ الوجه من شدة الكآبة، والابتسام المصطنع يرسم على ملامحه خطوط ألمه وذلّه، وينفض عنها غبار الحزن والازعان كأن الله لم يخصّه قبلاً بمصير مجيد. فرقّت له قلوب الناس، وكلهم متأثرون بما آل اليه بسبب وحشية من عطف وأشفق عليهم. ولكن بما أن للسماء ضلعاً في هذه الاحداث الأليمة علينا ان نخضع بهدوء لحكمها الصارم. وها نحن قد أصبحنا رعايا بولينبروك الذي أعترف أنا ويعترف الكل بسطوته وسلطته.

(يدخل أوميرل).

الدوقة : ها هوذا ابني أوميرل قد أتى.

يورك : كان في الماضي يدعى أوميرل. غير أنه فقد هذا اللقب، لأنه كان من أنصار رتشرد. والآن يا سيدتي، عليك ان تسمّيه روتْلنْد. لأني كفلْتُه أمام المجلس

وتعهّدت بأنه سيحوّل اخلاصه وولاءه الى العاهل الجديد.

الدوقة : اهلاً بك، يا بنيّ. ما هي البنفسجات التي تزهو بإخضرار أوراقها النضرة في هذا الربيع المتجدّد.

اوميرل : سيدتي الوالدة، لست أدري ولايهمّني هذا الأمر بتاتاً. الله يعلم ان وجودي وعدمه أصبح عندي سيّان.

يورك : لماذا هذا القول ؟ عليك أن تحسن التصرف في هذا الموسم الجديد، خشية ان تذبل أحلامك قبل أن تزهر. ما وراءك من أخبار أوكسفورد ؟ هل تتواصل مناظراتها وأعيادها ؟

اوميرل : أجل هي مستمرة، على ما أعلم.

يورك : وأنا أعرف أنك عازم على الاشتراك في نشاطاتها.

اوميرل : ان شاء الله. هذا ما أنوي عمله.

يورك : ما هذا الختم البارز على الورقة المعلقة فوق صدرك ؟ لماذا شحب لونك ؟ دعني أتبيّن ما كُتب عليه.

اوميرل : أرجوك، يا سيدي، أن تعذرني. هذا أمر لا أهمية له، ولا داعي لأن أدع أحداً يطلع عليه.

يورك : أنا مصر على رؤيتها لبعض الأسباب، وأخشى...

الدوقة : ماذا تخشىٰ؟ لا بد من أن يكون هناك أمر ساهم فيه

فاشترى بزّة لارتدائها اثناء الاحتفالات هناك.

يورك : هي بطاقة باسمه. ولا لزوم لأنْ يساهم في اقتنائها هو أيضاً. انت لا تدركين، يا امرأة، ماذا يجري... أرني هذه الكتابة، يا ولد.

اوميرل : أتوسّل اليك أن تعذرني، اذ اني لا استطيع ان اطلعك عليها.

يورك : أنا مصمّم على مشاهدتها. هيا قلت لك، أرني إياها (ينتزع الورقة من صدر أوميرل ويقرأها). خيانة، خيانة عظمى. تبّاً لك من خائن حقير ومجرم خطير.

الدوقة : ما الأمر، أيها اللورد ؟

يورك : يا للفظاعة. من القادم ؟

(يدخل أحد الخدم).

يورك : (يواصل كلامه) : أسرج لي حصاني. يا إلهي إرحمني. ما هذا المؤامرة ؟

الدوقة : قل لي، ايها اللورد، ما الخبر ؟

يورك : ناولْني جزمتي. قلت لك أسرج لي حصاني. أقسم بشرفي، أقسم بحياتي، أني سأفضح هذا السافل.

(يخرج الخادم).

الدوقة : اخبرني ما الأمر ؟

يورك : إلزمي الهدوء، أيتها المرأة الساذجة.

الدوقة : لا أريد أن أهدأ... ما الأمر، يا ولدي ؟

اوميرل : إلزمي الهدوء، يا أماه. ليس في الأمر سوى ما يخصني شخصياً ويتعلق بي وحدي وبحياتي أنا فقط.

الدوقة : حياتك أنت ؟

يورك : اجلب لي جزمتي، أريد أن أذهب لأقابل الملك.

(يعود الخادم، وبيده جزمة الدوق).

الدوقة (تشير الى الخادم) : أطرده، يا أوميرل. مسكين أنت، يا بنيّ. ما لي أراك مرتبكاً. (للخادم) أخرج من هنا، أيها الأحمق، ولا ترني وجهك بعد الآن.

يورك : (للخادم) : قلت لك اعطني جزمتي.

الدوقة : آه، يا يورك، ماذا تنوي ان تفعل ؟ ألا تريد أن تستر غلطة ولدك ؟ هل لدينا ابن سواه ؟ وهل من المعقول ان ننجب ولداً آخر ؟ أولم أتقدّم في السنّ بمرور الأيام ؟ هل تريد أن تحرمني من ولدي في شيخوختي وأن تسلبني سعادتي كأم ؟ ألا يشبهك ؟ أولست أباه ؟

يورك : تبّاً لك من امرأة مهووسة ثرثارة حمقاء. أتريدين أن أكتم مؤامرة خبيثة خسيسة ؟ لقد تضامن اثنا عشر غبيّاً مثله وتعاهدوا على اغتيال الملك في اوكسفورد.

الدوقة : هذا أمر لا يمكن أن يتحقّق. وسنحتفظ بولدنا ها

هنا. فما عساه يفعل ؟

يورك : اليك عني أيتها الثرثارة الغبيّة. لو كان عشرين مرة ولـدي، لا بـد لـي مـن فضـح خيانتـه النكــراء.

الدوقة : لو كنت تعبتَ بحمله في أحشائك مثلي، لكنت أقلّ حدّة وقساوة في تصرفك حياله. لكني أتوقّع الآن ما يجول في فكرك. أنت تظنّ اني لم اكن وفيّة مخلصة لك كزوجة، وأن ولدنا ابن حرام وليس ابنك. يا صديقي العزيز يورك، أطردْ من رأسك هذا الوهم. ألا ترى أنه يشبهك تمام الشبه ولا يشبهني مطلقاً، ولا يشبه أحداً من أسرتي، ثم إني أحبه للغاية.

يورك : اليك عني، أيتها المرأة العنيدة. (يخرج).

الدوقة : هل أنا حقاً كما وصفني أبوك، يا أوميرل ؟ هيّا إمتطِ أحد جياده وأسرع بأقصى المستطاع واسبقه الى الملك والتمس عفوه على ما يتهمك به. وأنا لن أتأخر في اللحاق بك. ومهما كنت متقدّمة في السنّ أنا واثقة بأني على متن الجواد لا أزال أسرع من أبيك يورك. ولن أترجّل عن صهوة حصاني إلاّ بعد أن يعفو عنك بولينبروك. فهيا أسرع.

(يخرجان).

المشهد الثالث

في قصر وندسور.

(يدخل بولينبروك وهو بلباسه الملكي، وبرسي ولوردات آخرون).

بولينبروك : أولا يستطيع أحد أن يزوّدني بأنباء عن ولدي الشارد ؟ ها قد مضت ثلاثة أشهر على غيابه ولم أشاهده أثناءها. فان كان هناك من ضربة تقضّ مضجعي فهي غيابه بالذات واختفاؤه عنّي. أسأل الله، أيها اللوردات، أن نتمكن من العثور عليه. أرجوكم أن تبحثوا عنه في لندن وبالأخص في جميع الحانات. اذ بلغني أنه من روّادها المدمنين، بصحبة رفاقه الفجّار المستهترين الذين، على ما يقال، يقطعون ايضاً شتى الطرقات، وينصبون الكمائن ويسلبون المارة. وهو كغيره من الشبان المتهتّكين يتمرغ في أحضان الغواني وبنات الهوى. ويؤسفني كذلك ان يفاخر بمساندة تلك العصابة المنحطة الأخلاق.

برسي : يا مولاي، لقد شاهدت الأمير منذ يومين وكلّمته عن الحفلات الشعبيّة التي ستقام في اوكسفورد.

بولينبروك : وماذا قال لك هذا الماجن اللعين ؟

برسي : انه سيذهب الى مواخير المدينة المذكورة، وسيتناول

قفاز أشهر مومس هناك ليحتفظ به كتذكار عزيز، إذ يتوهّم انه تعويذة سيتغلب بواسطتها على أقوى منافسيه.

بولينبروك : حتماً فَقَدَ ابني كل مقومات عزة النفس والكرامة. مع ذلك، ومن خلال رذائله، لا أزال أَلْمح بصيص أمل يستطيع مع مرور الزمن، أن يهديه ويعيده الى السبيل القويم. لكن، من القادم الى هنا ؟

(يدخل أوميرل وهو يرتجف من شدة الهلع).

اوميرل : أين الملك ؟

بولينبروك : ماذا تريد، يا ابن العم، وماذا يروّعك هكذا ؟

اوميرل : حفظ الله جلالتك. أرجوك، يا صاحب السيادة، ان تسمح لي ببرهة وجيزة من وقتك لأحدّثك على انفراد.

بولينبروك : (للوردات) : أرجوكم ان تنسحبوا وتتركوني وحدي معه. (ينسحب برسي واللوردات). والآن تكلّم يا ابن عمّي. ما الخبر ؟

اوميرل : (يرتمي على قدمي بولينبروك) : صبرك عليّ لحظة ريثما يهدأ روعي وأتمكّن من الوقوف على قدميّ، ويقوى لساني على التحرك في فمي، لعلّي أتمكن من استرداد أنفاسي ومن الكلام كي تعفو عني.

بولينبروك : هل القضية لا تزال مشروعاً أم تمّ تنفيذها ؟ إن

كانت لا تزال مشروعاً، فمهما كان الأمر شنيعاً سأسامحك بغية استرجاع ما بدا منك من الاخلاص والولاء لي في الماضي وتنوي التشبّث به في مستقبل الأيام.

اوميرل : إسمح لي بأن أقفل الباب بالمفتاح كي لا يدخل أي إنسان الى هنا قبل انهاء قصتي.

بولينبروك : كما تشاء.

(أوميرل يقفل الباب).

يورك : (من الخارج) : إحذر، يا صاحب الجلالة. إلتزم جانب الحذر الشديد لأنك تواجه مجرماً خطيراً.

بولينبروك : (يستلّ سيفه) : أيها المحتال، أثبت لي أمانتك وبراءتك.

اوميرل : أوقف يدك الناقمة، ولا تخشَ مني أي أذى.

يورك : (من الخارج) : افتح لي الباب، أيها الملك المتهوّر الى حدّ الجنون. فحياتك في هذه اللحظة مهدّدة بخطر داهم. هل يتحتّم عليّ لإنقاذ حياتك أن أقتحم الباب كثائر متمرّد. إن لم تفتح لي فوراً، كسرت هذا الباب ودخلت عنوةً.

(يفتح بولينبروك الباب ويدخل يورك مندفعاً).

يورك : تصفّح هذا المكتوب، واطّلع على الخيانة التي يمنعني استعجالي من شرحها لك بالتفصيل.

اوميرل : (للملك) : تذكّر وعدك لي وأنت تقرأ. أنا تائب، فلا تسخط عليّ لمجرّد ورود إسمي في الورقة، ما دام قلبي أبى أن يكون شريك يدي.

يورك : كنت غادراً ماكراً قبل أن توقّع يدك عليها. أيها الملك المتبصّر، لقد اقتلعت انا هذه الورقة من صدر هذا الخائن. وما دعاه الى الندم هو الخوف وليس الحب. فدع عنك كل شفقة حياله، خشية ان تتحوّل رحمتك الى افعى تلدغك وتنفث فيك سمومها.

بولينبروك : تبّاً لإبنك من مغامر متآمر وقح ومناوئ محتال. ويا لك من والد وفيّ أنجب ابناً سفّاحاً كهذا، وأنت الينبوع الصافي النقي الذي اشتق منه هذا الجدول العكر الملوّث. فما تفيض به نفسك من خير ها قد تحوّل الى شرّ مستطير. لذا أترك لأمانتك أن تقاصص بصرامةٍ ولدك المجرم الذي يستحق أقصى العقاب.

يورك : هكذا أصبحتْ فضيلتي ستراً لرذيلة ولدي، وقد استخدم شهامتي لتبرير جحوده اللئيم كما يبدد الابن المسرف اموال أبيه الحريص. لا بد لي من المحافظة على شرفي ناصعاً طاهراً. وعليه أن يمحو عاره ويدفن سفالته، وإلّا أفضى انحطاطه الى اذلال كياني.

أنت تقضي على حياتي بصيانة وجوده وانقاذ رأسه، اذ تدع الخائن يعيش والرجل الشهم يموت.

الدوقة : (من الخارج) : بالله عليك، أيها الملك الفاضل، أرجوك بحق السماء أن تدعني أدخل.

بولينبروك : من هي الملتمسة القلقة التي تطلق هذه الصيحات اليائسة المدويّة ؟

الدوقة : هي امرأة مسكينة، هي عمتك ايها الملك الوقور. استمع الى كلامي وافتح الباب واستجب نداء مستعطية على باب كرمك وسماحتك، لم تعرف يوماً ذلّ السؤال.

بولينبروك : ها قد تغيّر المشهد. فمن مسألة جدّيّة إنتقلنا الى قصة « الملك والمتسوّلة ». يا ابن عمي الكريم، دعْ والدتك تدخل. وانا على يقين بأنها جاءت تتوسّط وتخفّف وطأة عملك المشين.

يورك : اذا سامحته نزولاً عند رجاء أيٍ كان ستشجّع رحابة صدرك على ارتكاب قبائح جديدة. عليك أن تبتر هذا العضو المريض، كي يظلّ سائر الجسم سليماً معافى. أمّا إذا أبقيت عليه ظلّ البدن كله عليلاً.

(تدخل دوقة يورك)

الدوقة : أيها الملك الشهم، لا تصدق هذا الرجل المتحجّر

القلب. فمن لا يرحم نفسه لا سبيل له الى الاشفاق على سواه.

يورك : ايتها المرأة الفاضلة، ماذا جئت تفعلين هنا ؟ هل تودّين أن تدافعي عن هذا الخائن السافل ؟

الدوقة : صبراً يا عزيزي يورك. إستمع إليّ أيها المولى الصالح.

(تركع).

بولينبروك : انهضي، يا عمتي الكريمة.

الدوقة : لن أنهض الآن، بل استحلفك وأنا لا أريد أن أنهض طوال عمري، ولا أن أرى يوماً سعيداً قبل أن تردّ الى قلبي الطمأنينة والسرور وذلك بأن لا ترفض لي التماسي وأن تعفو عن ولدي المذنب روثلاند.

اوميرل : (يركع) : وأنا أضمّ صوتي المتوسّل الى رجاء والدتي.

يورك : (وهو يركع) : أمّا أنا فأعارض إلحاحهما وأجثو بدوري امامك. فإن عفوت عنه حتماً سيصيبك مكروه.

الدوقة : هل يتكلّم جدّياً ؟ أنظر الى وجهه والى عينيه الخاليتين من أي أثر للدمع. فإن التماسه مضحك وكلامه ينطلق من طرف لسانه بينما توسّلنا نحن مصدره أعماق فؤادنا. هو يرجو بخشونة ويستدرّ

رفضك، بينما نحن نناشدك السماح بقلب منسحق
وروح متواضع وعاطفة متذلّلة. أنا أعرف ان رجليه
التعبتين تنتصبان بسهولة، بينما ركبتانا ستظلاّن
ملتصقتين بالأرض حتى تتأصلا وتنبت لهما جذور
عميقة. رجاؤه هو مفعم بالرياء الكاذب بينما إلْتماسنا
نحن ينبع من صراحة صادقة وفيّة واسترحاماتنا
تستصرخ ضميرك الحيّ بصوت جريئ بريئ أعلى من
صوته المرتجف المائع. عليك، يا صاحب الجلالة،
أن تميّز بين استغاثة الحقيقة التي تستحقّ الرحمة
وبين صلابة التشبث بالصرامة التي تستدعي الازدراء.

بولينبروك : اكرّر عليك، يا عمتي العزيزة، أن تنهضي.

الدوقة : كلا، لا تطلب مني ان انهض الآن، بل قل لي : « أنا أعفو عنه »، قبل أن أطلب منك النهوض. لو كنت المربّية المكلّفة بتعليمك النطق، فان كلمة العفو هي أولى اللفظات التي كنت لقّنتك اياها. لم اتلهّف في حياتي الى سماع أية كلمة أرجوها. فأتوسّل اليك، أيها الملك، ان تقول : « إني أسامحك ». وهذه الكلمة هي أحلى لفظة اود ان اسمعها منك، لأنها أروع كلمة تخرج من فم ملك عادل كريم.

يورك : خاطبها بالفرنسية وقل لها : اعذريني على عدم مسامحتي اياه.

الدوقة : انت تقترح على الرجل السموح ان يلغي كلمة العفو. تبّا لك من زوج متصلّب وسيد متحجّر القلب تقدّم عكس معنى الكلمة على معناها الصحيح. ألا تحدّث عن العفو بلهجة بلدنا، فنحن لا نفهم ابداً هذه اللغة الفرنسية الغريبة. عيونك بدأت تتكلّم فانصت الى صوتها. ولتسترق أذنك الإصغاء الى صوت قلبك الذي كان دوماً رحوماً، كي يسمع شكوانا ورجاءنا الحارّ، فيرقّ فؤادك ويهتزّ بعاطفة الرحمة والغفران.

بولينبروك : اسألك ، يا عمتي الكريمة أن تنهضي.

الدوقة : انا لا أَطلب النهوض. فالمنّة الوحيدة التي ألتمسها منك هي العفو ثم العفو ثم العفو.

بولينبروك : إني أعفو عنه، وأسأل الله أن يسامحني.

الدوقة : ها قد بلغتُ امنيّتي أنا المسترحمة الجاثية. مع ذلك تراني غير هادئة البال من هول ما راعني. أرجوك أن تكرّر ما قلته منذ لحظة. فتكرار عفوك ليس عفواً مضاعفاً، بل هو تأكيد هذا العفو السموح.

بولينبروك : من كل قلبي أقول اني عفوت عنه.

الدوقة : انت فعلاً على الأرض تمثل الله غفّار الذنوب.

بولينبروك : امّا ما يخصّ صهرنا الوفي، هذا الكاهن الممعِن في التقى وسائر زمرته الطاغية، فان الدمار سيحلّ

بديارهم ويَنْعُب فيه غراب البين. أرسل، يا عماه، جنودك الى اوكسفورد والى كل مكان يعجّ بهؤلاء الخونة، بغية تطهير الأرض من موبقاتهم. أقسم أنهم لن يعيشوا طويلاً في هذه الأرض الطيبة لأني أنوي إلْقاء القبض عليهم، عندما أعرف مكان وجودهم. وداعاً، يا عماه. وداعاً يا ابن العم. لقد أحسنت امّك في رجائها وفي التماس العفو عنك. فاعتصم بحبل الوفاء والولاء من الآن وصاعداً، واسلم آمناً، وعِشْ هانئاً.

الدوقة : تعالَ، يا بنيّ، تعال، أيها الخاطئ التائب. أسأل الله أن يخلق فيك انساناً جديداً صالحاً.

المشهد الرابع

في وندسور.

(يدخل ايكْسْتون وأحد الخدم).

ايكْستون : الم تلاحظ ما فاه به الملك؟ أليس من صديق يخلّصني من هذا المأزق الحرج ؟ أليس هذا ما نطق به حرفياً ؟

الخادم : أجل، هذه كلماته بعينها.

ايكستون : لقد تساءل قائلاً : أليس من صديق يسعفني ؟ وقد كرّر ذلك مرتين، ملحّاً على هذا السؤال بالذات في كلا المرتين. أليس كذلك ؟

الخادم : أجل، أجل.

ايكستون : واثناء حديثه، تمعّن فيّ جيداً كأنه يريد أن يقول : أتمنّى لك ان تكون رجلاً يستعجل إجراءات الطلاق بين قلبي وهذا الشبح المرعب، وهو يشير الى الملك الموجود في بومْفرات. هيا بنا نذهب من هنا. أنا صديق الملك وأصرّ على انقاذه من اعدائه.

(يخرجان).

المشهد الخامس

في شرفة من قصر بومْفرات.

(يدخل الملك رتشرد).

رتشرد : حاولت عبثاً حتى الآن ان اجد طريقة لمقارنة السجن الكبير الذي اعيش فيه بما حولي من الناس. لكن لمّا كان العالم غاصاً بالسكان المتزاحمين، لم أجد أية وسيلة الى هذه المقارنة لاني أحيا هنا

منفرداً. مع ذلك، لا بدّ لي من ايجاد تقارب في هذا الموضوع الشائك. أنا اعتبر دماغي كجهاز أنثوي بالنسبة الى ذهني، وذهني هو الأب وكلاهما يتعاونان على خلق مجموعة جديدة من الأفكار التي تتصارع وتملأ هذا الكون بالأهواء الغامضة التي تفرّق شعوب هذه الدنيا. لان ليس هناك حكمة واحدة مجرّدة تنطوي على الحل الذي يرضي الجميع. فأسمى الشؤون التي ترتكز على الافكار المتعلقة بالأمور الالهية لا تخلو من بوادر الشك وتضع الكلمة ذاتها مقابل نقيض هذه الكلمة الاساسية. لذلك نميل الى الاستنتاج من هذه العبارة التالية: « دعوا الاولاد يأتون اليّ » انها نقيض: « أعسر من مرور الجمل في ثقب الابرة ». لأن النزعة الرامية الى الانتفاض والطموح تتآمر من خلال المعجزات غير الممكنة، وتبحث عن سبيل لجعل الأظافر الضعيفة تحفر وتشقّ طريقها من خلال السفوح الصخرية المنتصبة في منعرجات هذا العالم القاتم كجدران سجني المظلم الذي يحجب عني النور والحرية. وبما ان ذلك متعذّر، تتوارى هذه الافكار وتُدفن في غياهب الأباطيل ذاتها. اما الافكار النيّرة الميالة الى المسالمة والمسايرة، فتتشبّث بالحكمة القائلة اننا لسنا أوّل ضحايا سوء الحظ ولن نكون آخرها، نظير هؤلاء المستعطين الاغبياء

الجالسين عند أقدام أعمدة الهيكل يخفون انحطاطهم في زوايا هذا الملاذ الذي ضمّ غيرهم في الماضي وسيضمّ آخرين أيضاً في المستقبل، وكلهم يجدون نوعاً من العزاء في القبول بحظهم العاثر على حساب من عانوا الغبن مثلهم في دهاليز تاريخ البشرية. وهكذا أقوم وحدي بأدوار مختلفة ليس فيها واحد راضياً بما قسم له من نصيب. في بعض الأحيان أراني ملكاً، فتحملني الخيبات على التمنّي بأن أصبح متسوّلاً، وأكون كذلك. لكن بؤسي الأليم يقنعني بأن الأجدر بي ان اكون ملكاً فأجد نفسي ملكاً ثانيةً. ثم سرعان ما تراود خاطري فكرة بأن بولينبروك قد خلعني وانتزع العرش منّي، واذا بي أفقد ما أنا حاصل عليه. ولكن مهما كان الحال، فلا أنا ولا أي كان من البشر يجد سبيلاً الى العثور على ما يرضيه، قبل الانفراج الاخير والانعتاق من مغريات هذه الدنيا، اي الانفلات من غياهب الاباطيل. (تصدح الموسيقى) ماذا أسمع؟ من أين تأتي هذه الأنغام الموسيقية؟ لاحظوا الإيقاع... ان أعذب الالحان تبدو مزعجة عندما لا تجيءُ في حينها، ولا تكون نبراتها منسجمة. هكذا هو حال سائر بني البشر. هنا ألاحظ ان سمعي مرهف يميّز كل نبرة نشاز تنبعث من وتر مختلّ التوازن. لكن أذني حيال

معزوفة سلطتي وزمني لم تكن مرهفة الى درجة تجعلني آبهُ الى سوء تصرفي بأوقاتي وشؤوني، فانتهيت الى وضع حملني على الانحراف في سلوكي وتصرفي بشخصي انا. إذ إن الوقت الآن يتّخذني كمقياسٍ لمرور الزمن. فافكاري هي الدقائق وكل تنهيدة تتصاعد من أعماق صدري هي بمثابة الثواني التي تدل على لحظات من الوقت في ميناء ساعة كبيرة يمثّل عقربيها إصبعاي اللذان امسح بطرفهما دموع شقائي واخفاقي. أما الصوت الذي يعلن تمام الساعات فهو شهيق نحيبي الذي يرنّ كجرس مكسور في زوايا فؤادي المكلوم. هكذا تدلّ التبدّلات والدموع والآهات على الثواني والدقائق والساعات... غير أن الوقت يسرع بالنسبة الى بولينبروك في فوّارة أفراحه، بينما انا هنا اقوم بالنسبة اليه مقام نابض الساعة البليد المتواري. ان هذه الموسيقى تثير كوامن شجوني، ولا بد لها من ان تتوقّف لأرتاح قليلاً. وإن كانت احياناً تعيد المجنون الى صواب رشده، فهي بالنسبة اليّ دافع العقل الى أحضان الجنون المطبق. على كل حال. هذا لا يهمّ. فأنا أبارك الانسان النبيل الذي يشنّف اذني بهذه المعزوفة الحلوة. لأنها دليل حنوّ، والعطف على رتشرد اضحى بلسماً نادر الوجود

يشفي جراحي في هذه الدنيا الحافلة بالحقد والبغضاء.

(يدخل أحد الغلمان)

الغلام : السلام عليك، أيها الملك المبجّل.

الملك رتشرد : أشكرك، يا صاح. ان أغلى شخص بيننا يساوي عشرة فلوس أقلّ من سواه في سوق التفاهة والخساسة. من أنت، وكيف وصلت الى هذا المكان المقفر الذي لا يبلغ اليه سوى قاصده ممّن يأتونني بطعامي كي لا أهلك جوعاً ؟

الغلام : ايها الملك الكريم، انا كنت غلاماً مسكيناً في أحد اسطبلاتك العديدة عندما كنت لا تزال ملكاً. وحين ذهبت الى يورك تمكّنت بصعوبة من الحصول على أذن لأشاهد ملامح الملك الذي كان قبلاً سيدي. كم كان قلبي كئيباً يوم التتويج لدى مشاهدتي بولينبروك في شوارع لندن يتجوّل على متن الحصان « بربري » الذي كثيراً ما أمتطيته أنا لأدرّبه، هذا الحصان الأصيل الذي طالما رعيته وأحسنت الاعتناء به.

الملك رتشرد : اذاً كنت تمتطي حصاني المفضّل « بربري ». قل لي يا صديقي كيف حال « بربري » في هذه الأيام ؟ هل هو سهل القياد ؟

الغلام : هو فخور متشامخ كما كان، ينفر عندما يمتطيه أحد سواك، كأنه من بعدك بات يزدري بالأرض التي يسير عليها خبباً.

الملك رتشرد : هل رأيته هكذا فخوراً عندما اعتلى صهوته بولينبروك ؟ هذا الحصان النشيط الاليف كان يأكل الخبز من يدي الملكية، وكان يرتاح كثيراً لمداعبة اناملي وملاطفة جلده الأملس الناعم، ولم يكن ابداً يجفل مني. ولم يسقط يوماً مع أن التشامخ لا يسلم من كبوة، ولم يفكّ عنق الرجل المتجبّر الذي سلبني اياه. سامحني ايها الحصان. لماذا أنا ألومك، وأنت مخلوق لتعيش في كنف سيدك الانسان، والمطلوب منك ان تحمله. فأنا لم أولد حصاناً، ومع ذلك أحمل أعبائي كأني مطيّة تقلبات الدهر يهمزها ويرهقها المغتصب العاتي بولينبروك.

(يدخل السجان وبيده صحن طعام)

السجان (للغلام) : إذهب من هنا، يا رفيقي، إذ لا يمكنك ان تبقى في هذا المكان مدة أطول من هذه.

الملك رتشرد : إذا كنت تحبّني فعلاً، عليك أن تمضي.

الغلام : إن لم يجرؤ لساني على إعلان حبّي لك، سيعبّر عن قلبي (يخرج).

السجان (يشير الى الصحن) : هل تريد، يا مولاي، أن تتفضّل وتتناول طعامك ؟

الملك رتشرد : هلّا ذقت أوّلاً هذا المأكل كما جرت العادة ؟

السجان : لا أجسر، يا مولاي، لأن سرْ إيكْسْتون الذي أرسله الملك مؤخراً أمرني بالعدول عن هذه العادة.

الملك رتشرد : ليت الشيطان حملك وحمل هنري لنكاستر الى نيران الجحيم. فقد نفذ صبري ومللت وجودي هنا.

(يضرب السجان).

(يدخل إيكستون وبعض الرجال المسلّحين).

الملك رتشرد : (يواصل) : ما معنى هذا الكلام ؟ ماذا يقصد المستبدّ بهذه المعاملة الشرسة ؟ تبّاً لك من دجّال جعلت ظلمك آلة للقضاء على حياتي. (ينتزع سلاح أحد الرجال ويقتله). إذهب انت ايضاً واشغل مكاناً آخر في جهنم. (ثم يقتل رجلاً ثانياً، فيصرعه إيكستون ويرديه جريحاً). ليحترق في لهيب نارٍ لا تنطفئ ذاك الذراع الذي ستدوّخني ضربته. يا إيكستون، قد لوّثت يدك بدم ملك كان يحكم بلادك. فاصعدي يا نفسي الى مقرك في الأعالي، بينما جسدي يهوي الى الارض التي ستضمه عندما أفارق الحياة. (يموت).

ايكستون : ان قيمتك كبيرة بقدر ما يجري في عروقك من دماء

ملكية. وانا استنفدتُ هذه وتلك. واملي ان تنظر السماء الى سلوكي بعين الرضى. لان إبليس الذي كان يحمّسني ويدّعي أني أحسنت صنعاً، يصرّح لي الآن بأن جرمي قد دُوِّن في سجل الجحيم لأُعاقب عليه. فلأَحملْ هذا الملك الميت الى الملك الحيّ. وأنتم أيها الرجال، هيّوا الى نقل باقي الجثث لندفنها هناك. (يخرجون).

المشهد السادس

(تصدح الموسيقى).

(يدخل بولينبروك ويورك بصحبة لوردات آخرين، مع رجال الحاشية).

بولينبروك : يا عمي العزيز، إن آخر نبأ بلغني الآن هو أن المتمرّدين احرقوا مدينتنا سيسْتر في مقاطعة كلوسسْتر شاير، ولم أعرف بعد إن كانوا قد إعْتُقِلوا أو قُتِلوا.

(يدخل نورثمبرلند)

بولينبروك : أهلاً بمولاي. ما وراءك من الأخبار ؟

نورثمبرلند : أوّلاً أتمنّى لك النجاح والازدهار في كل ما تُقدم

عليه. ثم أُعلمك بأني أرسلت الى لندن رؤوس سالزبري وسبنسر وبلونْت وكَنْت. أمّا تفاصيل إعتقالهم فمسرودة في هذه الورقة.

(يقدم له ورقة).

بولينبروك : أشكرك على ما قمت به ايها النبيل برسي، ولن أبخل عليك بمكافأتك على سعيك المشكور.

(يدخل فيتْز واتر)

فيتْز واتر : مولاي، ارسلت من اوكسفورد الى لندن رؤوس بروكاس وسرْ بينيت سيلي وهما اثنان من اخطر المشاغبين الذين تآمروا في اوكسفورد لقلب حكمك والاستيلاء على عرشك.

بولينبروك : لن أنسى جميلك، يا فيتْز واتر. وأنا أعرف نبل نواياك التي جعلتك تستحق أفضل المكافآت.

(يدخل برسي وأسقف كارْليل).

برسي : أما المتآمر الخطر كاهن وستمنستر الذي يعذّبه ضميره وينهش الاسف المرير صدره فهو ينتظر أن تُودع جثته ظلمة القبر قريباً. ها هوذا كارليل المذكور حيّ ماثل امامك ليتبلّغ حكمك الملكي عليه بالإعدام وينال ما تستحقه خيانته وعجرفته من العقاب الصارم العادل.

بولينبروك : اليك بحكمي يا كارليل : إختر مكاناً لتنزوي فيه وتقضي ما تبقّى لك من العمر، وتنعم في العيش هناك بهدوء. المهمّ ان تحيا بسلام وتموت حرّاً طليقاً بعيداً عن كل مضايقة واضطهاد. لأني رغم عدائك الذي أظهرته لي، لا أزال أرى فيك قبساً من الشهامة والمروءة والايمان.

(يدخل إيكستون ويتبعه رجال يحملون نعشاً).

ايكستون : أيها الملك العظيم، أقدّم لك في هذا النعش جثة مسبِّب قلقك المدفون. فهنا يرقد جثمان ألدّ أعدائك رتشرد القادم من بوردو، وقد أتيت به أنا من هناك.

بولينبروك : اني لا أشكرك، يا إيكستون لأن يدك قد ارتكبت جرماً سيثقل عاره على كاهلي، وعلى هذا البلد المسكين.

ايكستون : أنا ما أقدمت على هذا العمل إلّا بناءً على تحريضك، يا مولاي.

بولينبروك : من لا يريد أن يتجرّع السمّ لا يتقبّله. وأنا لا أحبّذ صنيعك، وان أنا تمنّيت الموت للمذكور ووددت ان أراه جثّة هامدة. لذا بتُّ أكرهك الآن لأنك قتلته وحرمته نعمة الحياة. وجزاء ما جنته يدك لا بد من ان تتحمل توبيخ ضميرك وعذابه مدى العمر. سأحرمك رضاي ومُنَحِك الملكية التي جدت بها

عليك. إذهب من أمام وجهي. ولتظلَّ تائها كقايين تحت جنح الظلام ولا تعرّض نفسك لضوء النهار كي لا تقع عيني عليك من الآن وصاعداً. أؤكد لك ان جريمتك مصدر حزن عميق يعذّب روحي ويغرق كياني في لجج القلق والاضطراب. هيا اشترك في الحداد الذي يمزق فؤادي، بعد أن تجلّل قلبك بسواد الليل الدامس. أريد الآن أن أسافر الى الأراضي المقدسة لكي أغسل بدم الفادي نفسي الخاطئة التي تمنّت حصول هذه الجريمة. سِرْ كئيباً في معيتي وشاطرني أساي، وامشِ دامع العين خلف هذا النعش الذي أودعته رفات صاحبه قبل الأوان.

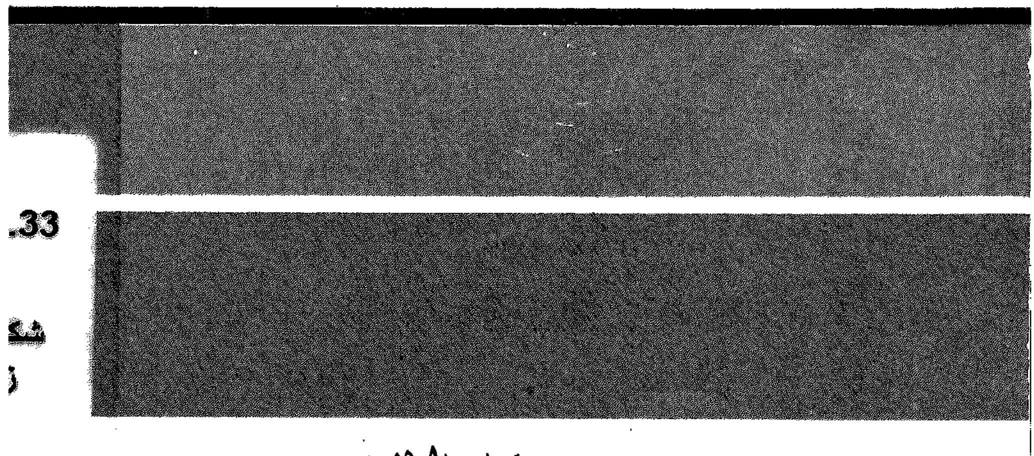
(يخرجون).

(تمّت)









توزيع دار الجيل